الفصل الثالث

الرّشْدّية في مَدْرَسَة بَادُو

1 - طابعُ مدرسة بادو العامُ

تستحقُّ جامعةُ بادُو مكانًا في تاريخ الفلسفة، وهذا المكانُ، مِثْلَ فاتح لمذهبٍ أصليٍّ، أقلُّ منه مِثْلَ مُوَاصِلٍ لعادات القرون الوسطى زمنًا أطولَ مما تَمَّ لأية مدرسة أخرى، والواقعُ أن فلسفة بادو ليست شيئًا آخرَ غيرَ السِّكُلَاسية التي ظَلَّتْ حَيَّة مع انحطاطٍ في المُقَوِّمَات، ومطيلةً هَرَمَها البطيء حولَ نقطةٍ منفصلة، وهي بذلك كالإمبراطورية الرومانية التي قُصِرَت على القسطنطينية، أو كالسيطرة الإسلامية حُصِرَت ضِمْنَ أسوار غَرْناطة، وكأنّ المَشَّائية العربية المُجَسَّدَة في ابن رشد لَزِمَتْ شمالَ إيطاليا الشرقيَّ حيث قَضَتْ حياتها مُتْعَبةً حتى سواءِ القرن السابعَ عشرَ، والحقُّ أن كرِيمُونِيني المتوفَّى سنة 1631 هو آخرُ سِكُلَاسِيٍّ.

وكيف استطاعت هذه الفلسفةُ الفاقدةُ الطلاوة أن تُعَمِّر طويلًا بذاك المقدار مع سُخْرِيات بِتْرارك وعلى الرغم من صَوْلَات علماء الأدب القديم، وذلك في بلدٍ كان أولَ من اعتنق الثقافة الحديثة؟ يَجِبُ أن يُجَابَ عن هذا السؤال بأن حركة النهضة كانت حركةً أدبية كما يَلُوح لي، لا حركةً فلسفية، وكانت أوربا المتبربرة قد وَجَدَت صَوْلَةَ الفُضُول العلميّ في صميم نفسها، لا حِسَّ جمال الأشكال، والآن تُقِيمُ فنَّ خطابتها في مدرسة الأوائل، ولم يستول ممثلو حركة النهضة على حَقْلِ الفلسفة بحَزْم، وهكذا بَقِيَ هذا التعليمُ ملازمًا لأثره المُسِنِّ، أي أن عَنْعناتِ القرون الوسطى الغليظةَ القائمةَ على الحَذْلَقة بَقِيَتْ هنالك، وأن ذوي الأذهان الدقيقة ابتعدت عن منزل المجادلات والأدب الرديء هذا، عن هذا المنزل الذي كان يُتَكَلَّمُ فيه برَطانة ثقيلة، والذي كان المُمَخْرِقون ينتحلون فيه وَضَعَ الأستاذ، وبما أن الحقيقة في كلِّ أمرٍ رقيقةٌ شَرُودٌ إلى الغاية فإنها لا تُبْلَغ بالجَدَل، وفي الهندسة والجَبْر، حيث المبادئُ بسيطةٌ إلى الغاية صادقةٌ إطلاقًا، يُمْكِنُ التلاعبُ في الدساتير وتركيبُها إلى ما لا حَدَّ له، وذلك من غير اكتراث لِمَا تُشِيرُ إليه من حقائق، وفي العلوم الخُلُقية والسياسية، حيث المبادئُ تكون بتعبيرها الناقص، الجزئيِّ دائمًا، قائمةً على الصواب نِصْفًا وعلى الخطأ نِصْفًا، لا تَكُون نتائجُ البرهنة

مطابقةً للحقِّ إلَّا إذا رُقِبَتْ بالتجربة والذوق السليم في كلِّ خُطوة، وبما أن القياس المنطقيّ يُبْعِدُ كلَّ فَرْقٍ دقيق، وبما أن الحقيقة كلَّها تقوم على الفروق فإن القياس المنطقيَّ يُعَدُّ آلةً لا تَنْفَعُ للعثور على الحقيقة في العلوم الخُلقية، ويَكُون المنطقُ الحقيقيُّ في الأَلْمَعِيَّة والمرونة ووَفْرَة الثَّقَافة الذهنية، ويَكُون الشكلُ في الفلسفة من الأهمية كالأساس على الأقلّ، وما أُعْطِيَه الفكرُ من جَوَلان هو البرهان الوحيدُ الممكن، ويُمْكِنُ أن يقال، من ناحيةٍ، إن علماء الأدب القديم في عصر النهضة، المقتصرين على حسن البيان ظاهرًا، كانوا فلاسفةً أكثرَ من رُشْديي بادُو في الحقيقة.

والواقعُ أن مدرسة بادُو وحدَها ليست مذنبةً بهذا الخطأ الغريب في تاريخ الحوادث، فليس من الصواب عَدُّ السِّكُلاسية منتهيةً في القرنِ الخامسَ عشرَ والقرنِ السادسَ عشرَ، ولا في القرنِ السابعَ عشرَ أيضًا، أَلَمْ يُرَ أن مُنَظمَّةً مشهورة وَجَّهَتْ إلى دِيكارْت أشدَّ اعتراضٍ باسم أرسطو، أي أرسطو المدارس، أي أرسطو الدفاترِ التي كانت تتناقلها أيدي الأساتذة جيلًا بعد جيل؟ ومن السهل أن نُبَيِّن أن السِّكُلَاسية باقيةً في أيامنا في أكثرَ من تدريس[1]، ولا شيءَ يَعْدِل المُبَايَنات الغريبة التي تَعْرِضُها في هذه المناسبة برامجُ القرنِ السادسَ عشرَ والقرنِ السابعَ عشرَ التي لا تزال جامعةُ بادُو محتفظةً بها، ومن ذلك أنك تَجِدُ بجانب العلم الحقيقيّ المُمَثَّلِ بفالُوبَ وفَبْرِيشي الأَكْوَا بِنْدَنْتي علمَ اللاهوت الذي يُدَرِّسه دُومِنيكيٌّ على طريقة القديس توما وفرنسسكانيٌّ على طريقة سكُوت، ويُخْبِرُ كرِيمُونيني سامعيه بأنه سيُفَسِّر رسالةَ الكون والفساد ورسالةَ السماء والعالم[2] براتب ألفي فلورين، على حين يَقُوم غَليلِه بإيضاح أصول أُقليدس براتبٍ أقلَّ من ذلك كثيرًا[3].

ومدرسة بادُو هي مدرسةُ أساتذة، ولم يَبْقَ منها غيرُ دروس، وكانت الدروس في ذلك الزمن لا تَعْرِف أن تَصِيرَ كُتُبًا، وكذلك لم تترك هذه المدرسة ما تُطَاق مطالعتُه، أو يُعَدُّ ذا قيمة في حال العقل البشريّ الحاضرة، أَجَلْ، تستطيع مدرسةُ الأساتذة أن تَقُوم بخِدَم عظيمة للعِلْم، غير أنها لا تستطيع أن تَعْرِض بتركيبها مجموعَ طبيعة الإنسان، وفلسفةُ بادُو هِيَ بادُو نَفْسَها، وهي

(1) وجد من أكد لي أنه لا يزال يعول في تدريس الفلسفة في بعض المدارس بلباردية على دفاتر مدرسة بادو في القرن السادس عشر.
(2) كان تقسيم الدفاتر يعين بعناوين الرسائل الأرسطوطاليسية، وكان يوجد دفتر عن كتاب النفس ودفتر عن التحليلات ودفتر عن الحكمة المموهة.
(3) ومما يروى عن جامعة بادو أيضًا، وذلك بعد اكتشاف أقمار المشترى، أن كريمونيني، الذي يحكم في الأمر خلافًا لأرسطو، امتنع مع الإصرار عن النظر بالمرقب عقب ذلك.

مدينةٌ متوسطةٌ خاليةٌ من البراعة إِذَا ما قِيسَتْ بالمُدُن التُّسْكانية، وما تشتمل عليه من أشياءَ جميلةٍ، كالأَرِينا والبَيْتِيسْتِر والراجْيُونا والسَّنْتُو، هو من صُنْع الأجانب، وما كنيسةُ سان أنطوان، وما زهرةُ بادُو هذه، وما هذا الإبداعُ البادْوِيُّ الحقيقيُّ، إذا ما قِيسَ بفرنسوا الأَسِّيزي، وبكَتَرِينَة السِّيَانِيَّة؟ حَقًّا أن أعاجيبَها من أَهْزَل الاختراعات، وأن جميعَ أُسطورتها من أسوأ الأساليب.

وتَرْتَبِطُ حركةُ بُولُوني وفِرَّارَ والبندقيةِ العقليةُ كلُّها بحركة بادُو، والواقعُ أن جامعتي بادُو وبُولُونِي لا تؤلِّفَان في ذلك غيرَ جامعةٍ واحدة، ولو في التعليم الفلسفيِّ والطبِّيِّ على الأقل، وكان الأساتذةُ أنفسُهم يتردَّدون إلى الجامعتين مناوبةً نَيْلًا لزيادةٍ في الراتب، ولم تَكُنْ بادو، من ناحيةٍ أخرى، غيرَ حَيِّ البندقية اللاتينيِّ، وكان كلُّ ما يُعَلَّمُ في بادُو يُطْبَع في البندقية، ولذا فإن مما لا رَيْبَ فيه أنه يُقْصَدُ باسم المدرسة البادوية هنا انتشارُ الفلسفة كلُّه في شمال إيطاليا.

2 - الرّشدية الطبية، بيار الأبانويّ

دراسةُ الطبِّ، على الخصوص، هي التي ساعدت على إقامة عهد العرب في بادو، ويستحقُّ بيارُ الأَبَانُوِيُّ أن يُعَدَّ، من هذه الناحية، مِثْلَ مؤسسٍ للرشدية البادوية[1]، وسابقًا مَهَّدَ «المُوَفِّقُ بين اختلافات الفلاسفة والأطباء» لتجارِب زيمارا وتُومِيتَا نُوس ليُوَفِّقَ بين أرسطو وابن رشد، وهذا من أغرب ما يَكُون! وذلك أن بيارَ الأبانُوِيَّ لا يَعْرِف الكلياتِ ولا كتبَ ابن رشد الطبية، أي أن جميع الاستشهادات التي أوردها عن هذا المؤلِّف مقتبسةٌ من كتبه الفلسفية وإنما أريدُ أن أقول، من ناحيةٍ أخرى، إن بيارَ الأَبانويَّ، بشهرته المشتبه فيها، وأُرْتُدُكْسِيَّته المبهمة، استحقَّ اسمَ الرُّشديِّ كما هو الأفضل أن يُذْكَرَ، وقد عُبِّرَ من قِبَله، للمرة الأولى، وبجرأة عجيبة، عن فكرة طالع الأديان الإلحادية التي تَنَاوَلها، بعدئذٍ، بُنُبُونا وبيك المِيرَنْدُولِيُّ وكَرْدان وفانيني[2]، وقد مات بيارُ الأبانويُّ حينما كان يَبْحَث في قضيته، وقد انتقم مجلس التفتيش منه بتحريقه

(1) ذهب تيرابوشي Storia della lett, ital، جزء 5، 1، 2، فصل 2: 3) إلى أن بيار الأبانوي كان مؤلف استشهد بابن رشد في إيطاليا، فهذه مبالغة كبيرة.

(2) قيل في سنة 1303: Ex conjunctione Saturni et Jovi in principio Arietis, quod quidem circa finem 960 contingit annorum... totus mundus inferior commutatur ita quod non solum regna, sed et leges et prophetae consurgunt in mundo.. sicut apparuit in adventu Nabuchodonosor, Moysi, Alexandri Magni, Nazarei, Machometi.

* Concil controv ص 15 (فنسيا، 1565).

عظامه[1]، وبَقِيَ اسمُه في ذاكرة العوامِّ مُثْقَلًا بالمكايد الجهنمية ومحاطًا بالأهوال الحافلة بالأسرار.

ويَغْدُو الطبُّ البادُوِيُّ كلُّه مرتبطًا في الرُّشدية حصرًا منذ ذلك الحين[2]، ويؤلِّف الأطباء بشمال إيطاليا في ذلك الزمن طبَقَةً غَنِيَّةً مستقلةً ممقوتةً لدى الإكليروس صاحبةً لآراءٍ على شيءٍ من الحرية في أمر الدين، ويصير الطبُّ والعُروبة والرشدية والتنجيم[3] والإلحادُ كلماتٍ مترادفةً تقريبًا، وفي سنة 1324 يَحْكُم مجلس التفتيش بِبُولوني على سِكُّو الأسْكُوليِّ بإتلاف جميع كتبه في التنجيم وبحضور الوعظ بكنيسة الدُّومنيكان في كلِّ يوم أحد، وذلك لِمَا كان من سابق كلامه ضِدَّ الدين[4]، ثم أُحْرِق بعد زمنٍ وَوَضَعه أُرْكَغْنا في إحدى جَهَنَّمَاته، وينكشف الاستعدادُ الذهنيُّ الوضعيُّ النَّزُوعُ إلى الدهرية والسائد لشمال إيطاليا، ويَكْثُر المتزندقون ويحاولون هنا، كما في كلِّ مكان، أن يَحْتَمُوا باسم ابن رشد، بَيْدَ أن طُرُزَ الرُّشدية التي هي على شيءٍ من التَّصَلُّب وقسوةَ المدرسة العربية أَدَّتا إلى سقوط الرُّشديين ضِمْنَ حَذْلَقةٍ قائمة على الغطرسة ما كان ليُعْوِزها أَلَّا تَرُوق بالغي الثَّقافة في تُسْكانَة، ويُدْرِك بِتْرَارْكُ بفطرته اللطيفة هذا الفرق بدقةٍ عجيبة، أي أن نفوره من الرشدية الطبية من سِمَات حياته الجوهرية ومن فَوْرَات هذه النفس الفاتنة.

3 - مناهضةُ بِتْرَارْكَ للرشدية

يستحقُّ بترارك أن يُدْعى بأول رجلٍ عصريّ، وذلك من حيث كَوْنَهُ قد فتح لدى اللاتين إحساسَ الثَّقَافةِ القديمةِ اللطيفَ، إحساسَ هذه الثَّقَافة التي هي مصدرُ جميع حضارتنا، أَجَلْ، حاولت القرونُ الوسطى كثيرًا أن تَعْقِدَ الخيطَ المقطوع وأن تتصل بالمأثور الكَلَاسِيّ، غير أن القرون الوسطى، مع إعجابها بهذا القديم، لم تُدْرِكه فيما يَنْطَوِي عن حيوية وخِصْب، وعلى العكس كان بِتْرَارْكُ من الأوائل حقًّا، وذلك أن أولَ ما وَجَدَ هو سِرُّ هذا الطِّرَاز النبيل الكريم

(1) ومع ذلك فإن رجمه يظهر للنساك بالكتابة القائلة: Petri Aponi cineres Ob ann 1315, oet, 66.

(2) Nec aliter medico philosophandum putabant, quam Averrois et Avicennae doctrina Facciolati, Fasti Gymnasii Patavini، قسم1، ص 49، تيرابوشي، جزء5، 1، 2، فصل 11.

(3) وكان فن التنجيم قريبًا من الروح العربي، ومع ذلك فإنه كان يرى أن ابن رشد يناهض مزاعم هذا الفن الخيالي: Dicam ergo cum Averroe: Astrologia nostri temporis nulla est Sed statim dicit astrologus (scil, Petrus Aponus): Averroes non scivit astrologiam, sed astra non mentiuntur. Benvenuto d>Imola, ad Inf cant XX, apud Muratori, Antiq, t. III. col 947.

(4) راجع تيرابوشي، جزء5، 1، 11، فصل 11: 15.

الجَوَاد في إدراك الحياة التي توارت عن العالَم منذ فَوْز البرابرة، ومن ثَمَّ كان ازدراءُ بترَارْكَ للقرون الوسطى ولكلِّ ما يرتبط فيها، وقد كان عِلْم العرب يَلُوح له مِثْلَ بقيةٍ لحذْلقة ذلك الدَّوْر، فَبَيْنَا كانت ينابيعُ علمِ الأوائل الأصليةُ مؤصدةً دون الغرب كان العربُ يُقَدِّمون من الخِدَم ما لا جِدَالَ فيه، ولكنْ عاد هؤلاء المفسِّرون غيرُ الأمناء لا يكونون غيرَ عائق أمام الأوائل أنفسِهم، فوَلَعُ تلاميذهم المضحكُ أثار في طبيعة بِتْرَارْكَ الرقيقة النَّزِقة نوبةَ حَرَد[1].

وتَجِدُ هذه البغضاء في كلِّ صفحةٍ من كُتُب بِتْرَارْك، حتى إن بِتْرَارْك لم يُرِدْ أن يُشْفَى بنصائح الطبِّ العربيّ، ولا بالأدوية التي تَحْمِلُ أسماءً عربية[2]، فقد قال لصديقه يُوحَنَّا الدُّنْدِي[3]: «أرجو منك، فيما هو خاصٌّ بي، ألَّا تعتمد على عَرَبِك وأن تَعُدَّهم كأنهم لم يَكُونوا، فأنا أَمْقُت هؤلاء القوم، وأعْرِف أن بلاد اليوم أنتجت علماءَ وبُلَغَاء، أيْ أنتجت فلاسفةً وشعراءَ وخطباء ورياضيين، وكلٌّ أتَى من هناك، وهناك وُلِدَ آباء الطبِّ أيضًا، وأما أطباءُ العرب!.. فعَلَيَّ أن أعْرِف مَنْ هم، وأما أنا فإنني أعْرِف شعراءهم، فلا يُمْكِنني أن أتصور من هو أكثرُ منهم تَخَنُّثًا وارتخاءً وهُجْرًا[4].. ولا أكاد أُحْمَلُ على الاعتقاد بإمكان صدور ما هو صالحٌ عن العرب[5]، ومع ذلك، فبأيِّ ضعفٍ لا أَدْرِيه، أيها العلماء، تَغْمُرُونهم بمدائحَ لا يستحقُّونها، ومن ذلك قَوْلُ طبيب على مَسْمَعٍ مني، وقد وافقه زملاؤه على قوله، إنه لو وُجِدَ معاصرٌ مساوٍ لبُقْرَاطَ لأَذِن له في التأليف على ما يحتمل لو لم يؤلِّف العرب، ولا أقول إن هذا الكلامَ لَسَعَ قلبي كالقُرَّاص، وإنما أقول إنه طعنه كالخَنجر، وكان يَكْفِي لحَمْلِي على إلقاء جميع كتبي في النار.. ماذا!! استطاع شيشرون أن يكون خطيبًا بعد دِيمُوستين، واستطاع فِرْجِيلُ أن يَكُون شاعرًا بعد أوميرس، واستطاع تيت ليف وسَلُّوسْتُ أن يكونا مؤرخين بعد هِيرُدُتس وتُوسِيديد، فهل قُدِّر علينا ألَّا نؤلِّف بعد العربَ؟ لقد تَسَاوَيْنا نحن والأغارقة وجميعُ الشعوب غالبًا وسبقناها أحيانًا، خَلَا العربَ، فياللحماقة! أو يا للضلال! ويالعبقرية إيطاليا الناعسة أو الخامدة!»[6].

---

(1) أبدى مسيو هنشل آراء مشابهة كل المشابهة للتي تتبع في الـ Allgemeine Monastchrift كيبل، أغسطس 1853.

(2) Contra medicum quemdam invect، جزء2، ص 1093، 1097، Rer, sen XXII، ص 907 (طبعة هنريكبتري، 1554).

(3) Senil, XII, Ep.2 (جزء2، ص 904)، Contra med quemdam invect , Seclusis Arabum mendaciis ص 905.

(4) كيف استطاع بترارك أن يعرف الشعر العربي الذي لم يكن للقرون الوسطى أقل فكرة عنه؟

(5) Unum, antequam desinam, to obsecro ut ab omni consilio mearum rerum tui isti Arabes arceantur atque exulent: odi genus universum... Vix mihi persuadebitur ab Arabia posse aliquid boni esse T. H ص 913.

(6) Arabiculjs, ut vos velle videmini, duntaxat exceptis I O infamis exceptio, O vertigo rerum admirabilis, O Italica vel sopita ingenia vel extincta المصدر نفسه.

وكان حقدُ بترارك على المنجمين والأطباء[1] ينشأ عن أن هؤلاء وأولئك كانوا، في نظره، يُمَثِّلُون روحَ العرب والدهرية الجَبَرية الإلحادية، وفضلًا عن ذلك فإنه يَلُوح أن من خصائص الطبِّ في كلِّ زمن أن يؤلِّبَ على نفسه علماءَ الأدب القديم وفريقَ ذوي الصَّلَاح، وقد غَدَا الحقد على الأطباء فكرةً متسلطةً على خيال بترارك في سِنِيه الأخيرة، وقد وَقَعَ نزاعٌ في أفنْيُونَ بينه وبين أطباء البابا الذين كانوا يتظاهرون بازدراء الشعراء لعَدِّهم الشعراءَ أُناسًا عاطلين من المهنة غيرَ نافعين[2]، ولِذَا ألَّف كتبَه الأربعةَ في «إهانات طبيب[3]»، وهي تعزيرٌ بالغٌ جَمَعَ فيه حِيَالَ فنِّ الشفاء جميعَ ما يُتَصَوَّرُ من تَذَمُّر، وذلك وُصولًا إلى النتيجة القائلة إنه لا يُوجَدُ في العالم طبيبٌ يُمْكِن أن يُرْكَنُ إليه[4]، وفي كتابٍ أرسله إلى بُكَّاسَ[5] وَصَفَ، عن خُبْثٍ، مَخْرَقَةَ أطباء زمنه وغرورَهم، هؤلاء الأطباء الذي لا يَظْهَرُون أمامَ الجمهور إلا لابسين أفخرَ ثيابٍ راكبين خيلًا بَهِيَّةً مع مَهَامِيزَ من ذهب، وهيئةٍ مُتَسَلِّط، وأصابعَ ساطعةٍ بخَوَاتِمَ وحِجَارةٍ ثمينة[6]، قال بترارك: «من القليل أَلَّا يُبَاهُوا بمفاخر النصر، وهم أهلٌ لذلك بالحقيقة، وذلك لأنك لا تَجِدُ واحدًا منهم لم يَقْتُل خمسةَ آلاف رجل على الأقل، أيْ لم يَقْتُل هذا العددَ من الناس الذي لابُدَّ منه لاستحقاق هذا المجد»، وفي كتاب آخرَ، أرسله إلى بَنْدُلْف مالاتِسْتَا، قَصَّ، أو اختلق تأييدًا لموضوعه، من الحكايات أكثرَ ما يَكُون إبهاجًا[7]، ويَظْهَرُ، مع ذلك، أن أذكياء بادُو شَكَرُوا له هذه الحَملة على حذلقة الأطباء، وذلك لِمَا حَدَثَ بعد زمنٍ من اقتراحٍ بادُوِيٍّ عليه إقامةَ تمثال له على نفقته في «مَرْج الوادي»، وذلك على أن يُسْمَحَ له بأن تنقش عليه كلمة: «فَرنْسِيس بتْرَارْك، عدوُّ الأطباء الأكبر».

وما يُسَاوِرُ بتْرَارْكَ من نفورٍ حِيَالَ كلِّ ما يَتِمُّ على المَخْرَقةِ جَعَلَه يُنْكِر ما قَدَّمت المدرسةُ الطبية من خِدَمٍ إلى ذهن الإنسان بإقامتها العِلْمَ العَلْمَانيَّ والعقليَّ، وتَقَعُ إيطاليا في دهريةٍ

(1) راجع تيرابوشي، جزء5، 1، 2، فصل 3: أو ما بعده، سبرنغل، تاريخ الطب، جزء2، ص 477، 478، آندر، Dell> origine، إلخ، جزء1، ص 153 (بارما، 1782)، وبحث حول بترارك كناقد لطب زمانه، في مجلة تاريخ الطب المعروفة بالجانوس والمطبوعة في برسلاو من قبل ا، ف، إ، ت هنشل، جزء1 (1846)، ص 183 وما بعدها.

(2) Senil. I. XII, ep . 1 et 2 (جزء2، ص 900، 908، 914)، L. XV eq 3 (ص 951 وما بعدها).

(3) معارضة، جزء2، ص 1086، وما بعدها، نقد لويس فيفس 1، 5 De causis corruptarum artium، (معارضة، جزء1، ص 413 وما بعدها)، بال، 1555).

(4) De medicis non modo nil sperandum, sed valde etiam metuendum معارضة، جزء2، ص 801).

(5) Senil, IV ep4 (جزء2، ص 796 وما بعدها).

(6) لم تتردد رسائل الطب في القرون الوسطى أن توصي بأوقح تمويه للانتفاع، راجع هنشل Janus، جزء1، ص 307، وما بعدها، دارنبرغ، رحلة طبية أدبية في إنجلترا، ص 14.

(7) Senil. I XIII, ep 8, Cf. Lbid, l XIV ep 26, L. XII, ep 1 et 2. L.III. ep 4.

عنيفة قاسية حاجبة كلما أرادت مقاومة خرافة العوامّ، ولم يكن ابنُ رشد والعربُ في ذلك الدّور لدى أحرار الفكر سوى كلمة سِرٍّ، ولم يَكُنْ لِيُمْكنَ ابتغاءُ لقبِ الفيلسوف البارع ما لم يُقَسمْ بابن رشد، ويَقُصُّ بتْرَارْكُ[1] نفسُه علينا خبرَ مغامراتٍ طريفة حَوْلَ هذا الموضوع، ومن ذلك أن زاره في مكتبته في البندقية أحدُ أولئك الرشديين «الذين يَرَوْن، وَفْقَ عادة الفلاسفة المعاصرين، أنه لا يُؤْتَى بشيء إذا لم يُعْوَ على يسوعَ وعلى مذهبه الذي يفوق الطبيعة»، ولما أقدم بتْرَارْكُ في أثناء حديثٍ أن يَسْتَشْهِد بقولٍ للقديس بولس عَبَسَ هذا الرجلُ ازدراءً[2]، وقال له: «احتفظ لنفسك بهذا النوع من المعلمين، وأما أنا فلي معلمي، وأعْرِف مَنْ أَعْتَقد»[3]، وحاول بتْرَارْك أن يدافع عن الرسول، فأخذ الرُّشْدِيُّ يَضْحَك، وقد قال: «إيهِ! ابْقَ نصرانيًّا صالحًا، وأما أنا فلا أُؤمِنُ بواحدة من جميع هذه الأساطير، ولم يكُنْ بُولُسُكَ وأُوغُسْتُنُكَ وجميعُ هؤلاء الناس الذين تُقِيمُ لهم وَزْنًا غيرَ ثَرْثَارين، آه! ليتك كُنْتَ قادرًا على مطالعة ابن رشد!.. فتُبْصِرَ مقدارَ ما هو أعلى من جميع هؤلاء المُجَّان!»[4]، ولم يَكَدْ بِتْرَارْك يَكْظِمَ غَيْظَه، فقد أَمْسَكَ الرُّشْدِيَّ من رِدائه طالبًا منه أَلَّا يجيء إليه بعد ذلك، ومما حَدَث، أيضًا، أن أباح بِتْرَارْكُ لنفسه ذِكْرَ القديس أُوغُسْتن لأحد هؤلاء المُتَزَنْدِقين فقال هذا: «يا لَلْخَسَارة في إباحة هذا العبقريِّ الكبير لنفسه أن تنقاد لأساطيرَ صبيانيةٍ بهذا المقدار[5]! وإنما يُوجَدُ لي أملٌ كبيرٌ فيك، وذلك أنني سأراك يومًا من فريقنا».

والواقعُ، كما يَظْهَرُ، أن بِتْرَارك كان عُرْضَةً لمضايقات الرشديين[6] حينًا من الزمن، وليست رسالته «جهلُ الإنسان لنفسه ولكثير من الناس»[7] غيرَ خَبَرٍ عن أحاديثَ تَمَّتْ بينه وبين أربعة من أصدقائه الرشديين بالبندقية لم يألوا جهدًا لاجتذابه إلى فريقهم، وأول ما يَقُصُّه بِتْرَارْكُ هو نبأُ الجهود التي كانوا يَبْذُلُونها نحوه أفرادًا أو مجتمعين، وما كان يَظْهَرُ عليهم من

(1) Senil. l v. ep 3 (جزء2، ص 796)، راجع تيرابوشي، جزء5، ص 190 وما بعدها (طبعة مودين).

(2) Ille spumans rabie, et contemptus supercilio frontem turpans: Tuos (Inquit) et Ecclesiae doctorculos tibi habe..

(3) تطبق الكلمات المذكورة، عن سخرية من الرسالة الثانية إلى تيموته (1، 12) على ابن رشد.

(4) Ad haec ille nauseabundus risit: Et tu (inquit) esto Christianus bonus, ego horum omnium nihil credo. Et Paulus et Augustinus tuus, hique omnes alii quos praedicas. Loquacissimi homines fuere. Utinam tu Averroim pati posses. ut videres quanto ille tuis his nugatoribus major sit Exarsi, fateor, et vix manum ab illo impuro et blasphemo ore continui.

(5) جزء2، ص1055.

(6) Neque illis ignota est bibliotheca nostram quam toties me tentantes ingressi sunt جزء2، ص 154.

(7)معارضة، جزء2، ص 1035 وما بعدها.

حزنٍ مصحوبٍ بغضبٍ عندما كانوا يَرَوْن نَظَرَه إلى دينه بعين الجِدِّ وذكرَه موسى والقديسَ بولس من الأَثْبَات، وأخيرًا تشاوروا فيما بينهم ليَرَوْا هل من إضاعة الوقت محاولةُ تحويله، وقد أَجْمَلُوا قولَهم بدعوته رجلًا بسيطًا خاليًا من الآداب «تأخُذ هذه الجملة القصيرة مع أنني رجلٌ صالح بلا علم»، ونَعْلَمُ من مخطوطٍ في مكتبة القِدِّيسَين، يوحنا وبولس، أسماء هؤلاء الرشديين الأربعة، فهم، على ما رُوِي: لِيُونار دَنْدُولو وتوما تَلَنْتُو وزكريا كُنْتَارِيني، وهؤلاء الثلاثة من البندقية، وأما رابعُهم، وهو الأستاذ غِيدُودا بَنْيُولو، فمن رِدْجِيُو[1]، وكانت الرشديةُ قد صارت دارجةً لدى الطبقة الراقية في البندقية وصار لابُدَّ من الافتخار بها لِمَنْ يريد أن يُعَدَّ من المُثَقَّفِين[2]، والواقعُ أن أقطعَ الإلحاد كان يستتر تحت هذا الاسم، قال بِتْرَارْك: «إنهم لو لم يَخْشَوْا تنكيلَ الناس بهم قبل عذاب الله لجَرُءُوا على مصاولة سِفْرِ التكوين لموسى ومهاجمةِ الدين الكاثوليكيِّ وعقيدة يسوعَ المقدسةِ فضلًا عن خَلْق العالَم وَفْقَ كتاب طِيمَاؤُس، وهم متى عاد هذا الخوفُ لا يردعهم، واستطاعوا الكلامَ بلا قَسْرٍ، ناهضوا الحقيقةَ مباشرةً، وهم متى خَلَا بعضُهم إلى بعضٍ سَخِرُوا من يسوعَ وعَبَدُوا أرسطو الذي لا يَفْقَهُونه، وهم متى جادلوا جَهْرًا احْتَجُّوا بأنهم يتكلمون مع قَطْعَ النظر عن الدين، أي أنهم يَبْحَثُون عن الحقيقة بَنبْذِهم الحقيقة، وأنهم يَبْحَثُون عن النور بإدارة ظهورِهم نَحْوَ الشمس، ولكنهم لا يَتْرُكُون في السِّرِّ تجديفًا ولا مغالطةً ولا فُكاهةً ولا سُخْرِيَةً إلَّا رَوَّجوها مع هُتاف سامعيهم، وكيف لا يعاملوننا كما يعامَلُ الجاهلون ما داموا يَدْعُون معلِّمنا يَسُوعَ بالمعتوه؟ وأماهم فينتفخون بمغالطاتهم راضين عن أنفسهم متكلفين الخِصَام حَوْلَ كلِّ شيء من غير أن يقتبسوا شيئًا»، ثم يَعْرِضَ بِتْرَارْكُ دقيقَ المسائل التي كانوا يثيرونها حَوْلَ مسائل أرسطو[3] وحَوْل الخَلْق وقِدَمِ العالم وقدرةِ الله البالغة وسعادةِ الإنسان المطلقة، ويَقُول بِتْرَارْكُ صارخًا: «أيها الآلهةُ الخالدون! لا يستحقُّ الواحدُ لقبَ إنسان في نظر هؤلاء الناس إذا لم يَكُنْ ملحدًا عَيَّابًا مجنونًا،

(1) Primus miles, secundus simplex mercator, tertius simplex mercator, tertuis simplex nobilis, quartus medicus physicus. P degli Agostini, scritt فنيزيا، جزء1، ص 5، تيرابوشي، أ س، دوساد، مذكرة حول حياة بترارك، جزء3، ص 752.

(2) Cogitant se magnos, et sunt plane omnes divites, quae nunc una mortalibus magnitudo est جزء2، ص 1038.

(3) Quot leo pilos in vertice, quot plumas accipiter in cauda, ut adversi coeunt elephantes etc... Quae denique quamvis vera essent, nihil penitus ad beatam vitam (p. 1038), Solebant illi vel Aristotelicum problema, vel de animalibus aliquid in medium jactrae: ego autem vel tacere, vel jocari, vel ordiri, aliud, interdumque subridens quaerer quanoam modo id scire potuisset Aristoteles, cujus et ratio nulla est et experimentum impossibile, Stupere illi, et taciti subirasci, et blasphemum vetut aspicere p. 1042.

وإذَا لم يَقْطَع الشوارع والميادين العامة مُمَارِيًا حَوْل الحيوان مُظْهِرًا نفسَه مِثْلَ حيوان، وكلَّما أغار الواحدُ على الدين النصرانيِّ بصَوْلةٍ كان عندهم أكثرَ براعةً وأوسعَ اطِّلاعًا، وإذا ما أباح الإنسانُ لنفسه أن يدافع عن الدين عَدُّوه ضعيفَ العقل سخيفًا يَسْتُر جهلَه بِغطاء الإيمان، وأما أنا فكلما سمعت استخفافًا بدين يسوعَ زِدْتُ حُبًّا ليسوعَ وثباتًا على مذهبه، ويَتَّفِقُ لي مِثْلُ ما يتفق للابن الذين يَفْتُر حَنَانُه البَنَوِيُّ، فإذا ما سَمِعَ حَمْلَةً على شرف أبيه اشتعل في قلبه الحُبُّ الذي كان يَلُوح انطفاؤه، وأُشْهِدَ يسوعَ على أن تجاديفَ النصرانيِّ الإلحاديةَ جعلتني نصرانيًّا بالغَ النصرانية».

ولم يكتف بِتْرَارْكُ بهذه الاحتجاجات التي تُرَغِّبُ في الفضيلة، بل حاول وَضْعَ تفنيدٍ على شكل الأضاليل الرشدية، ولكنه لم يستطع إكمالَه، وقد أَلَحَّ كثيرًا على صديقه الراهب الأُوغُسْتِنيِّ، لويجي مَرْسِغْلِي، ليقوم بهذا العمل، وكتب يقول له[1]: «أطلب منك أن تَقُوم بآخرِ معروفٍ، وهو أن تتفضل، في أوقات الفراغ بأن تَنْقَلِب على هذا الكلب الرُّشْدِيِّ الصَّيَّاح الذي بَلَغَ من الهِيَاج الأعمى ما يَعْوِي معه على يسوعَ والدينِ الكاثُولِيكيِّ بلا انقطاع، وأنت تَعْلَمُ أنني كنتُ قد بدأت بجَمْع تجاديفه من هنا وهناك، ولكنْ صَدَّني عن ذلك ما أنا فيه من أشاغيلَ أكثرَ مما في أيِّ وقت كان ومن قلة الوقت ونَقْصِ العِلْم، فَسَلِّطْ قُوَى عقلك كلَّها على هذا العمل الذي أُهْمِلَ بما لا يَلِيقُ حتى الآن وأَهْدِ إليَّ كُتَيِّبَك سواءٌ عليَّ أكنتُ حيًّا أم ميتًا».

ومن الإنكار لأخلاق بِتْرَارْكَ أن يُعْتَقَدَ أن هذه المقاوَمَة للرشدية ناشئةٌ عن أُرْثُدُكْسيةٍ ضيقة، فهذا الذي هو مُبَشِّرٌ بأشدِّ ما تَبْغِيه الأزمنةُ الحديثة فَصَرَخَ قائلًا قبلَ لُوثِرَ بنحو قرن قائلًا: «خُلِعَ العِذَار من بابلَ الملحدة، وصار لا يَخْرُج منها صالح، وغَدَت بابلُ موئلَ الآلام وأمّ الأضاليل، فهَرَبْتُ منها حتى تطول حياتي»، وهذا الذي وجَّهَ إلى الشعب الرومانيِّ رسالةَ «تقييد الحرية»، فصَرَخَ عن حماسةٍ لكُولَا دي ريَانزِي قائلًا: «تبقى بلدي روما جميلة!»، لم يَكُنْ ليُذْعَرَ من تحرير العقول، وإنما كان بِتْرَارْكُ يَحْقِدُ على غطرسة الرشديين، وما كان هذا التُّسْكانيُّ المملوءُ فِطْنَةً ورِقَّةً ليستطيع احتمالَ لهجة الدهريةِ البندقيةِ القاسية القائمة على الحذلقة، وتَجِدُ كثيرًا من ذوي الأذهان اللطيفة يُفَضِّلُون أن يَكُونوا مؤمنين على أن يكونوا مُلْحِدين عن فساد ذوق.

(1) Epist. ultima sine titulo، معارضة، جزء2، ص 732، راجع تيرابوشي، جزء5، 1، 2، فصل 1: 23، دو ساد، جزء3، ص 761.

4 - جانُ الجَنْدُونيّ وفَرَا أُرْبَانو وبُولُ البندقيّ

من نصيب ابن رشد أن يَظْهَرَ في التاريخ ذا مصيرين يَتَجَلَّى أحدُهما في التعليم الكلاسيّ ويَتَجَلَّى الآخرُ بين الظُّرَفَاء والخُلَعَاء، ومع ذلك فإن هذين الدَّوْرَين لم يَكُونا بلا ارتباط فيما بينهما، وذلك أن إساءة استعمال اسم ابن رشد كانت قد شُجِّعَتْ بما كان يتمُّ له في المدارس من نفوذٍ بالغ، وأن ما اتَّفَقَ للسِّكُلَاسية الفاسدة من عادات كان قد أَقْلَمَ الشرحَ الأكبر في إيطاليا العليا، فيَعْرِض علينا غريغوارُ الرِّيمينيُّ وجِرُوم فِرَارِي وجان الجَنْدُونيُّ وفرا أرْبَانُو البولونيُّ، منذ النصف الأول من القرن الرابعَ عشرَ، ما يجب أن يَطُولَ من تعليمٍ بارزٍ في بادُو حتى منتصف القرنِ السابعَ عشرَ.

وقليلٌ من المؤلفين من ذُكِروا كثيرًا، كما ذُكِرَ جانُ الجَنْدُونيُّ[1]، ثم نُسُوا مِثْلَه، ومع ذلك فإننا نتناول به أستاذًا أَدَّتْ فَخْفخةُ المدرسة إلى منحه لقب «مَلِك الفلسفة» و«أميرِ المدرسة»، ومع أن جان الجَنْدُونيَّ هذا وُلِدَ بفرنسا، ومع أنه دَرَّسَ في جامعة باريس[2] تدريسًا ساطعًا، فإنه ينتسب إلى مدرسة بادو في الحقيقة، ففي هذه المدرسة ظَلَّ اسمُه مشهورًا[3]، وفيها عَرَفَ مَرْسِيلَ البادُوِيَّ وبَيَارَ الأَبَانُوِيَّ على ما يحتمل، عَرَفَ هذين الرجلين اللذين كانت له بهما صِلَاتٌ متصلةٌ من باريس فيَعُدُّونه مطلعًا على مَنْتَجَاتَ الرشدية، وقد تَعَصَّبَ للويسَ البافْيَارِيِّ كما تعصب مَرْسِيلُ، وذلك في النزاع الذي وَقَعَ بين هذا الإمبراطور وحَنَّا الثاني والعشرين، فأعان على وَضْعِ كتاب «المُدَافِع عن السلام» المشهور، ورأى أنه حُكِمَ عليه من قِبَل البابا في سنة 1328[4]، وقد طُبِعَتْ بالبندقية غيرَ مرةٍ مسائلُه وشروحُه على أرسطو

(1) جندون قرية من مديرية سيني لابني التابعة لولاية الأردين، وقد أدى هذا الاسم إلى طائفة من التحريفات: Jandunus Joannes de Gandavo, de Gan, de Ganduno, de Gonduno, de Gandion, de Gedeno. de Jandano, de Jandono, Jonnes, Jando, etc حتى إن زيمارا Solut, contrad f 107, 170, 214، وأنطوان برازافولا الفراري، في شرحه لكتاب جوهر الاجرام السماوية، سمياه Joannes Andegavensis.

(2) D>Achery, Spicil، جزء3، ص edit, alt 85، وقد حمل على تدريسه في بيروز أيضًا، أو ما كانت تقرأ Perusioe على أنها Parisius؟

(3) ولدنيو كنباني قصيدة نشرها مسيو أوزانام (وثائق غير مطبوعة يعتمد عليها في تاريخ الأدب الإيطالي، ص 319 - 320)، وهي موجهة إلى الفيلسوف الطبيعي، المايسترو جياندينو، الذي أثنى الشاعر على علمه ومؤلفاته، ويمكن، بلا مواربة، أن يعد هذا الرجل مطابقًا لجان الجندوني، وقد عاش دينو حتى سنة 1323.

(4) راجع مارتن، Thesaurus novus Anecd. 2، مجموعة 704، وما بعدها، بالوز، Miscell، جزء1، ص311 وما بعدها (باريس، 1678)، ج. فولف، Lect Memorab. Centenarii، 16، جزء1، ص 914، فبريسيوس، Bibl med et inf lat، جزء4، ص 77، بنديني Bibl. Leopoldina Laurent، جزء3، مجموعة 103، هـ فارتن، Appendix ad Hist, litt, Guill cave، (أوكسون، 1743)، ص 36، أودين De Script، جزء3، ص 883، دو بولاي، التاريخ العام، باريس، جزء4، ص 163، و 205، 206، 974، بوليو، السيرة الأردينية.

وابن رشد، ولاسيما جوهرُ الأجرام السماوية، وذلك في السنين 1488، 1469، 1501، وتشتمل المكتبة الإمبراطورية (أساس قديم، 6542) له على شرحٍ ضخم غيرِ مطبوعٍ لشرح بِيَار الأبانُوِيِّ على مسائل أرسطو، ويَعُود إلى مَرْسِيلَ أمرُ اطِّلَاع جانَ الجَنْدُونيِّ على كتاب بيَار الأبانُوِيِّ[1]، ويَضَعُ زِيمَارا[2] والقُلْمُرِيُّون[3] جان دُو جَنْدُونَ في عِداد الرشديين، ويُعَدُّ هكذا، في الحقيقة، بمناهجه وعادته في التعليم، وعنده أن ابن رشد «طبيبٌ كاملٌ مَجِيدٌ وصديقُ الحقِّ ومُدافعٌ مِقْدام»، وأما من حيث المذهبُ فإن جان الجندونيَّ لم يُمَزْ منه كثيرًا، وهو يدافع في شرحه على «جوهر الأجرام السماوية» عن نظرية الوجوب وعدمِ فساد الهَيُولَى السماوية، وهو يُخَطِّئُ «المعاصرين» الذين يَزْعُمون قائلين بما أن السماء مركبةٌ من عَيْن هَيُولي الأرض فإنها لا تنال وجوبَها إلا من سبب خارجيّ، وهو، في مسائله حَوْل كتاب النَّفْس، يكتفي بعرضه، مع كثير من الدقة، ما للمسائل الرُّشدية وما عليها حَوْلَ العقل[4]، فيسأل هو العقلُ الفَعَّال موجودٌ وجوبًا؟ وهل العقلُ الفَعَّال جزءٌ من نَفْس الإنسان؟ وهل العقلُ الممكن يُدْرِك العقلَ الفعال بعين الفَهْم دائمًا؟ وهو يسأل حَوْل المسألة المهمة: هل العقل واحدٌ في جميع الناس؟ وهو يَجِدُ صعوبةً في القَطْع بين مختلف العقول، أَجَلْ، وذلك لأنه إذا وُجِدَت عقول كثيرة فإن عقل الرجل الواحد لا يَكُون عقلَ رجلٍ آخرَ، أجلْ، وذلك أن العقل في هذا الافتراض يَكُون مُسْتَفْرَدًا بالجسم، مع أن من المحال استفرادَ جوهرٍ بالجسم مع وجوده قَبْل اتصاله بالجسم، كلَّا، وذلك أن عين العقول تَدَلُّ على أن العقل واحدٌ لدى الجميع، وهذا محالٌ، كَلَّا، وذلك بما أن العقل أولُ كمالٍ في الإنسان فإن الأنية تَكُون فردًا بالذي يَصْنَع ماهية الفرد الآخر[5]، كَلَّا، وذلك لأنه ينشأ عن هذا كَوْنُ الباعث نفسِه يُمْكِنُ أن يُؤَيِّد تغييراتٍ متناقضةً، كَلَّا، وذلك بما أن العقل قديمٌ، وبما أن النوع البشريَّ قديمٌ، فإن العقل يكون كاملًا قَبْلًا مملوءًا أنواعًا معقولةً[6] وهو يقول: «ومع أنني أَجِدُ أن رأي شارح أرسطو صريحٌ، ومع أنه يَتَعَذَّر تفنيدُ هذا الرأي بأسبابٍ

(1) Et ego Joannes de Genduno, qui, Deo gratias credo esse primus inter Parisius regentes in philosophia ad quem praedicta expositio pervenit per dilectissimum meum magistrum Marcilium de Padua, illorum expositionem manibus propriis mii scribere dignum duxi, ne malorum scriptorum corruptiones dampnosae delectationem meam in istius libri studio minorarent librumque praenominatum, scilicet illius gloriosi doctoris summas propono, Deo jubente, scolaribus studii Parisiensis verbotenus explicare المخطوط المذكور، ص1.

(2) Solut, contrad، ص 210. (3) 1، 2، كتاب النفس، فصل 1، مسألة 7، مادة1، ص 59.

(4) استشهد بمخطوط مار مرقس، صنف 6، رقم 101، ورقم 381، في سان أنطوان بيادو.

(5) Ego essem per esse tui, et tu per esse mei.

(6) Quum intellectus sit ab aeterno, vel ab aeterno fuit humana species ... videtur quod jam est omnino perfectus et plenus speciebus intelligibilibus

برهانية، فإنه يَلُوح لي أن العقل ليس واحدًا مطلقًا، وأنه يوجد من العقول بمقدار ما يوجد من الأجسام البشرية»[1]، وأكثرُ من هذا حَزْمًا رَفْضُ جان الجَنْدُونيِّ رأيًا يَفْصِلُه عن رأي الشارح، رأيًا قائلًا إن النفس القديمة الواحدة تستفرد في كلّ واحد بالتناسخ، وإنما يُؤَكِّدُ، بلا تردُّد، وَوَفق العقيدة اللاهوتية، أن النَّفْس يَبْرَؤُها اللهُ بخَلْقٍ مباشر يومَ التَكَوُّن، وكذلك يبتعد جانُ الجندونيُّ عن رأي الشارح في عدد كثير من المسائل حَوْلَ العقل والمعقول.

ويُعَدُّ السِّرْفِيتَ فرَا أَرْبَانُو مثالًا آخرَ من الرُّهبان الذين كانوا، كبَاكُتْرُوب، يَتَبَاهَوْن باسم الرُّشْدِيِّ بلا وَجَلَ، ويَزْعُم مَزُّوشِلِّي[2] ومَنْسِي[3] أنه دَرَّسَ علمَ اللاهوت بباريس وبادو وبُولُوني، غير أن تِيرَابوشي[4] وَجَّه النظر إلى أن الوثائق، التي تناولها مؤرخ منظمة السِّرْفِيتِ[5] الحَوْلِيُّ، الأبُ جِيَاني، تُخْبِرُ، فقط، عن مدرسة الفلسفة التي اتَّصَلَ بها فرَا أُرْبَانُو ببُولُوني، ويَرْجِعُ كتابُه المهمُّ إلى 1334، وفيه يُخْبِرُنا بأنه كان متقدمًا في السنِّ في هذا التاريخ[6]، وهذا الكتابُ الذي نال به لقبَ «أبي الفلسفة» شَرحٌ ضخمٌ لشرح ابن رشد على طبيعيات أرسطو، وقد أمر رئيسُ السِّرْفِيتِ العامُّ بطبعه في البندقية سنة 1492[7]، وذلك بمقدمه من نِقُولِتِّي فِرْنياس[8]، ويُخْبِرُ المؤلِّفُ في ديباجةٍ عن عزمه على تأليفِ مِثْلِ هذا الشرح على شرح رسالة السماء والعالَم، ومن ثَمَّ يُرَى أن ابن رشد كان قد حَلَّ محلَّ أرسطو، فَمْتنُه هو الذي يُشْرَح بدلًا من مَتْنِ الفيلسوف، وعند تِيرَابُوشي، الذي كان قد رأى نسخةً من شرح فرا أرْبانو في مكتبة إِسْتَ بمُودِينَ، أن فرَا أُرْبَانُو هذا لم يؤيِّدْ أيًّا من آراء ابن رشد الأثيمة، ويَظْهَرَ، فضلًا عن ذلك، أنه لم يَتَّفِقْ له كبيرُ تأثير، وذلك لأنك لا تَجِدُ مخطوطاتٍ من كتبه في مكتبات البندقية ولنباردية.

وحوَالِيْ ذاتِ الزمن أَلَّف أستاذُ الخَطابة بيارمَ، زكريا، رسالةَ «الزمان والحركة ضدَّ ابن رشد» التي تُوجَدُ في السُّرْبون[9] (أساس 1749)، والكتابُ ذو قيمة قليلة، ولكن مع دلالته

---

(1) Ipse est numeratus in diversis secundum numerationem corporum humanorum ويقرأ في الهامش: Opinio sacroe fidl

(2) Scritt Ital، جزء2، ص 3، ص 1479.

(3) Bibl, med et inf lat (contin)، جزء6، ص 308.

(4) جزء5، 1، 2، فصل 2، رقم 3.

(5) Annales Servorum B.M.V، جزء1، ص 308.

(6) جعله منسي (ل.س) أكثر عصرية بمراحل، ولكن من غير أن يذكر أية حجة.

(7) Urbanus Averroista, philosophus summus, ex almifico servorum B.M.V ordine, commentorum omnium Averoys super librum Aristotelis de Physcio audltu expositor clarissimus

(8) هين، جزء2، قسم 2، ص 496، 497.

(9) لم يحدث عن زكريا البارمي أي مؤلف في تاريخ الآداب، حتى أفو، ويشتمل مخطوط السربون على اثنين من مؤلفاته، وهما الرسالة المذكورة وكتاب في الخطابة اللاتينية بالغ الإمتاع أهدى إلى الكردينال ج. البارمي وإلى رئيس كنيسة باريس، نقولا، وهو، لاريب، ذاك الكتاب الذي ذكر في Gallia christiana (جزء7، ص 205) حوالي 1300.

على كثرة شيوع المسائل الرشدية في مدارس شمال إيطاليا في أوائل القرن الرابعَ عشرَ[1]. ويقول بولسُ البندقيُّ، المتوفَّى سنة 1429[2]، والذي هو أحدُ أَثْبَات زمنه، كما تشهد بذلك كثرةُ طَبَعَاتِ كتبه ونُسَخِها المخطوطة، والذي أُجْمِعَ على تلقيبه بـ«ملك الفلاسفة العظيم»[3] يقول بولسُ البندقيُّ هذا، بصراحةٍ يُحَارُ من صدورها عن راهب أُوغُسْتِنِيٍّ، بالنتائج الأخيرة للنظرية الرشدية، فقد قال: «يَزْعُمُ المعاصرون أن النفس العاقلة تَتَعَدَّدُ بتعدد مَنْ يُوجَد من الأفراد، ولكنْ من غير أن تكون عُرْضةً للفساد، وهم يُؤَكِّدُون أن هذا هو رأيُ أرسطو، بَيْدَ أن رأى أرسطو الحقيقيَّ هو أنه لا يُوجَدُ غيرُ عقل واحد لجميع الناس وَفْقَ تفسير الشارح، وَوَفْقَ المبدإِ القائل إن الطبيعة لا تَفِيضُ بزائد مطلقًا كما أنه لا يُعْوِزُها ضروريٌّ، ومع ذلك فإن هذا لا يَعْنِي أن النَّفْسَ عينَها تَكُون، في وقت واحد، سعيدةً وشقيةً، وعالمةً وجاهلة، ما دامت هذه الصفاتُ لا تَكُون في النفس غيرَ أعراض، فعقلُ الإنسان غيرُ مخلوق وفاقدُ التأثُّر لا يَفْسُد، ولا أولَ له ولا آخِر، ولا يُحْصَى وَفْقَ عدد الأفراد، والواقعُ أن كلَّ ما هو قابلٌ للفردية العددية هو من طبيعة الهَيُولي، والواقعُ أن النفس العاقلة مُنَزَّهةٌ عن كلِّ تَخَثُّرٍ هَيُولانيّ والنفسُ العاقلة هي آخر العقول العالمية، وهي خاصةٌ بالنوع البشريّ على حين تكون النفس الروحية «هكذا»، التي يكون الإنسان بها حيوانًا، من نوع نَفْسَ الحيوانات الأخرى، وهذه النفس تُولَد ولا تَفْسُد»[4].

إِذَنْ، لابُدَّ من عَدِّ بولسَ البندقيِّ بين أكثرِ الرُّشديين حَزْمًا، وقد أَيَّدَ النظرياتِ الرشديةَ ضِدَّ نقولا فافا في احتفالٍ ببُولُوني، وكان هذا أمام مجلس الأُوغُسْتيين الدينيِّ العامِّ المؤلَّفِ مما يزيد على ثمانمائة راهب، وما كانت براعته في الجَدَلِ لتَقِيَه من هزيمة، وذلك أن عدوَّ فافا الشخصيَّ، أُوغُو بِنْزِي السِّيَانيَّ، لم يستطع أن يَمْنَع نفسه من القول بصوتٍ عال: «إن فافا على حقّ، وأنت، يا بولس، قد غُلِبْتَ»، وأجاب بولسُ البندقيُّ عن هذا بقوله: «رَبَّاهُ! يَصِيرُ هِيرُودُس وبِيلَاطُس صديقين كما يُرَى!»، هنالك قَهْقَه الجمع وفُضَّ المجلس، وقد قُدِّم إلينا

(1) أتى هذا المخطوط في كثير غيره من هبة للسربون قام بها المعلم جاك البادوي.

(2) راجع أو سنيغر، Bibl. Augustin، ص 922 وما بعدها، تيرابوشي، جزء6، قسم1، 1، 2، فصل 2: 2، بلداسار بولي Supplimenti al Manauale di Tennemann، ص 537، وما بعدها، وتشتمل مخطوطات البندقية وبادو على كثير من المعارف حول الموضوع نفسه.

(3) وألقاب مثل monarcha sapientioe, philosophorum suoe oetatis facile princeps مما كان يطلق بسهولة عجيبة على أناس من أقل الناس قريحة، وقد كان آخر يتقلب بـ Aristotelis anima, alter Hippocrates, summus Italioe philosophus, Aristotelis genius.

(4) صار استخراج هذه النظرية من Summa totius philosophioe لبولس البندقي.

بولسُ البندقيُّ، من قِبَلَ معاصريه، مِثْلَ سكُولَاسيّ وَقِح مُعْجب بنفسه، وعلى العكس كان صديقُ فِلدِلْفَ، فافا، ينتسب إلى المدرسة اليونانية التي أَنْزَلت ابنَ رشد عن عرشه بعد قرن.

وكذلك كان بولسُ البرْغُوليُّ وأُنُوفْرِيو السُّلْمُونيُّ وهنركيُوسُ الألمانيّ وجان اللِنْدِيناريُّ ونقولا الفولِينيُّ والمرشدُ سترُودُسوس وهوغُ السِّيَانيُّ ومُرْسِيلُ السَّنْتَصُوفيُّ وجاكُ الفُورْلِيّ وتوما الكَتَلُونيّ وآدم بُوشِرِ مفُور أستاذةً مشهورين في زمانهم[1] وأنصارًا غُيرًا للسِّكُلَاسية الرشدية، والحقُّ أن من الصعب علينا إدراكَ ما كانت عليه هذه الفلسفةُ من فِتْنَةٍ مؤثرةٍ في الشبيبة المجتهدة المتزاحمة على بُولُوني وبادُو، ويَشْعُر الرجلُ المُتَبَتِّلُ إلى أعمال الذهن بغَمٍّ عظيم إذا ما نَظَرَ إلى محفوظات قرونِ الدراساتِ الطويلة هذه فأبصرَ في زاوية النسيان توارِيَ هذه الأكداسِ من المؤلَّفَات العتيقة التي ما كان لِيَبْقَى شيءٌ منها لولا بعضُ هذه الأسماء التي عاد لا يبالي أحدٌ بحفظها، وإنما يَتَعَزَّى عن هذا عندما يُفَكِّرُ فيما لإعمال العقل من قيمةٍ مستقلة مطلقة وفي كَوْن كلٍّ واحدٍ من مخطوطات جانَ الجَنْدُونيّ وبولسَ البندقيّ، إذ يَحْمِلُ بعنايةٍ اسمَ أستاذه وتاريخَ المباحث التي له نَفْعٌ فيها، قد دَخَلَ، من ناحيةٍ، في عَنْعَنَات العِلْم واستطاع أن يساعد على تهذيب الذهن البشريِّ الذي لا يَضِيعُ فيه شيءٌ مطلقًا، فما كانت الأبجديةُ التي تَعَلَّم غُوته منها القراءة كتابًا غيرَ مُجدٍ أبدًا.

5 - غايْتانُو التِّيانيّ وفِرْنياس

يُعْرَض غايْتَانُو التِّيَانيُّ (1387 - 1465)، في الغالب، مِثْلَ مؤسسِ الرشدية البادُوية[2]، وليس هذا صحيحًا ما دامت رِياسة ابن رشد قد استقرت بيادو منذ أكثرَ من قرنٍ قَبْلَ أن يَبْدأَ هذا الأستاذ بالتعليم فيها سنة 1436، ومع ذلك فإن غايْتَانُو ساعد بماله ومقامه الاجتماعيّ وتعليمه ومؤلفاته كثيرًا على زيادة نفوذ الشرح الأكبر، وقد غَدَا غايْتَانو، الذي هو سليل إحدى الأُسَر المشهورة بفِيسَانْس[3] من أهم رجال جامعة بادُو، ومات كاهنَ كتدرائية هذه

(1) انكشف لي معظم هؤلاء المؤلفين من البحث في مخطوطات البندقية وبادو.

(2) Primus Averroi auctoritatem in gymnasio Patavino conciljasse dicitur, ejus commentaria in philosophando unic secutus (Facciolati, Fasti gymn Pat قسم 2، ص 104 In explicando, omissis aliorum interpretum opinionibus, solum Averroem, fidissimum philosophi commentatorem sequebatur, eo ingenii acumine ut primus ei in gymnasio auctoritatem conciliaret. (Tomasinus, III . vir Elgoia جزء2، ص 34 - 35.

(3) أرادت أسرة تيان تذكار الأستاذ المشهور، فصار يحمل احد أفرادها اسم غايتانو دائمًا، وهكذا ترى فيلسوفنا سيما لمؤسس التيانيين: غايتانو التياني السعيد.

المدينة[1]، وانتقلت مكتبتُه، مع مؤلَّفاته الخاصة، إلى دير سان جيُوفَاني إنْ فِرْدارَا الذي هو من أهمِّ المراكز الرشدية، ثم انتقلت من هناك إلى كنيسة القدِّيس مَرْقُس حيث لا تزال مَظْهَرًا لدراسات ذلك الزمن، وتَشْهَدُ نسخُ محاضراتِ غايْتَانُو الكثيرةُ إلى الغاية والتي تُوجَدُ في مكتبة شمال إيطاليا، ونفاسةُ الخطِّ التي تَظْهَرُ فيها أحيانًا[2]، والطَبَعَاتُ الوافرةُ التي اتفقت لها في سِنَي الطِّبَاعة الأولى[3]، بما تمتعت به من رواجٍ في النصف الثاني من القرنِ الخامسَ عشرَ في مدارس إيطاليا، وفي جميع أوربا أيضًا.

ولا يَنْبَغي أن يطالَب غايْتَانُو بأيِّ مذهبٍ مُبْتَكر كان، وهو، لكَوْنه أقلَّ من بولسَ البندقيِّ جُرْأَةً، يَرْفِضُ جميعَ نتائج المَشَّائية الإلحادية، وهو في شرحه على رسالة النفس الذي تَمّ سنةَ 1448 يتتبع المسائلَ الرشدية في أدقِّ فرُوقُها، ويحاول غايْتَانو أن يُوَفِّقَ بين البقاء ونظرية الإدراك الأرسطوطاليسية، وهو لم يُوَفَّقَ إلى ذلك إلا بأغرب الافتراضات[4]، ويناقش غايتانو، في رسالةٍ في علم النفس أُيِّدَت بيادو[5]، حَوَلَ مسألةٍ يَلُوح أنها شَغَلَتْ بالَ مدرسة ذلك الزمن كثيرًا، وهي: هل يَجِبُ القولُ بحاسَّةٍ فَعَّالةٍ لإدراك الإحساس كما يقال بعَقْلٍ فَعَّال لإيضاح العقل، ومن قَوْل غايْتَانُو إن بعضهم يَزْعُم أن العقل الفَعَّال يُحْدِث الأنواعَ الحَسَّاسة التي تصير عناصرَ الإحساس، وهم يَعْزُون هذا الرأيَ إلى ابن رشد، ولكن على غير حقٍّ، وفي النفس الحَسَّاسة، كما في النفس العاقلة، يَفْتَرِض جان الجَنْدُونيُّ وآخرون وجودَ صنفين من القُوَى، أحدهما منفعل والآخر فَعَّال، ووجد غير هؤلاء، وهم أقرب إلى الحقيقة، من لا يقولون بوجود حاسة فعَّالة وإنما يَرَوْن أن المحسوسات تَكْفِي لإحداث الأنواع من ناحيةٍ، وأن الأنواعَ، من ناحية أخرى، تَكْفِي لإيضاح الإحساس، وذلك من غير تَدَخُّل فاعلٍ خاصّ، وفي رسالةٍ أخرى يُثِيرُ غايْتَاني مسألةَ خلود النفس، ويُجمِلُ قولَه بأن النفس العاقلة تُحْدَث بخَلْقٍ مباشر، ثم تَسْرِي في الهَيُولَي، ولِذَا فإن العقل إذا ما نُظِرَ إليه على انفراد وُجِدَ أنه مُحَدَث قابلٌ للفساد،

(1) انظر إلى سيرة كافي عن حياة غايتانو (في الديانة، أنجيول، غبريال دي سنتا ماريا) Biblioteca e Storia di quei quei scrittori cosi della citta come del territorio di Vicenza فيسنزا، 1772، جزء2، قسم1.

(2) صنعت جميع هذه النسخ في أيام حياته تقريبًا، وقد تمت، في الغالب، في ذات السنة التي ألقى فيها محاضرته عن موضوعها، وتشتمل مكتبة سان أنطوان بيادو على كثير من النسخ الفاخرة التي وهبها بنفسه إلى سان أنطوان، راجع Minciotti, Catal, dei codd, man di S. Ant ص -96 97.

(3) بانزه، Ann typog، ص 366 وما بعدها.

(4) Intellectus intelligit post separationem a corpore per species et habitus qui in eo ramanserunt, non in actu completo, sicut dum erat unitus corpori, quia quantum ad illud dependet a fantasmatibus, sed in actu semipleno et incompleto, secundum quem modum posset non dependere a fantasmatibus et perpetuari.

(5) طبعة بالبندقية، 1481، واستشهد وفق مخطوط مار مرقس (صنف 6، رقم 74).

ولكن النَّفْس البشرية إذا ما نُظِرَ إليها في مجموع خواصِّها وُجِدَت أبدية، وجميعُ هذا حائرٌ غيرُ حازم كما تَرَى. ومن الآن يُعَدُّ ابنُ رشدٍ في بادُو أستاذَ من يَعْلمُون، وفي كتابٍ أَلَّفَه ميشل سافونا رُولَا في سنة 1440 بعُنْوان «مَدْحُ بَتَافي يدعوه بالفيلسوف الإلهيِّ وشارحِ جميع كتب أرسطو»[1]، وتؤلِّفُ مكتبةُ جانَ المركتوفي التي وَقَفَها على دير مار يوحَنَّا بفَرْدارَا سنة 1467، والموجودةُ الآن في كنيسة القديس مَرْقُس بالبندقية، من كتب رشدية حصرًا تقريبًا، ويَعْنِي تعدادُ جميع البَادُويين والبُلُونيين الذين شَرَحُوا ابنَ رشد في القرن الخامسَ عشرَ وضعًا لجدول جميع أساتذة بادُو وبُلُونِي، وقد رأى كلود بتِّي[2] وتِيبِر بازِلْيَارِي البُلُونيين[3] ولُوران مُولِينُو الرُّوفِيغُويُّ[4] وأَبولِّينير وأُفْرِيدي وبَرْتِلمِي سبينَا وجيرُوم سَبْيثونتَّا[5] دروسَهم قد قُبِلَتْ لسهولة تفسيرها الشرحَ الأكبر، وكان توما الفيُو كاجيتانيُّ المشهورُ نفسُه يُدَرِّس على حَسب ابن رشد، وإذا ما صُدِّق غِي باتَنُ الحسنُ الاطلاع على ما كان يَجْرِي في بادُو من أحاديث وُجِدَ أن بُنْبُونَا استنبط سُمَّه من هذا التدريس[6]، وفي بادُو أَيَّد العالم كَسَّنْدَرَا فِدِلِه البندقيُّ، في سنة 1480، نظريات الرشديين وحاز قَصَبَ السَّبق في الفلسفة[7]، ولا تكاد المعارضة تُظْهِرُ نَفْسَها، وما كانت نظريةُ الأخ الأصغر أنطوان ترُنْبِتَّا ضِدَّ الرشديين[8] لِتَنْزِع شيئًا من جُرْأتهم، فالحقُّ أن السنين الأخيرة من القرن الخامسَ عشرَ هي سِنُو رياسة ابن رشد المطلقة في بادُو.

ويَجِبُ أن نَعُدَّ التِّيَانيَّ نِقُولِتِّي فرْنياسَ، الذي كان يُدَرِّس ببادُو فيما بين سنة 1471 وسنة 1499، بين أشدِّ رُشْدِيِّي ذلك الزمن حَزْمًا، وكان فِرْنياسُ أكثر جُرْأَةً من غايْتَانو، فَبَلَغَ من تأييده لنظرية وحدة العقل ما اتُّهِمَ معه بإفساد جميع إيطاليا بهذا الضلال الضارِّ[9]، ومن مدرسته

(1) موراتوري، Rerum ital. Script، جزء 24، مجموعة 1155.

(2) تشتمل مكتبة جامعة بولوني على محاضراته في خمسة عشر محلدًا ضخمًا.

(3) تيبر بازليازي، Lectura in octo libros de auditu Naturali Aristotelis et sui fidissimi commentatoris Averrois quam illo legente scholares Papienses scriptitarunt anno 1503 بابيا، 1507.

(4) فاكسيولاتي، الكتاب المذكور سابقًا، ص 114.

(5) ماترليلي، Appendix ad Bibl, S Michaelis prope Murianum، مجموعة 448 449.

(6) Patiniana، ص 98، 99 (طبعة 1701). (7) Facciolati، إ.س، ص 89، تومازيني، Elogia، جزء2، ص 343، وما بعدها.

(8) Tractatus singularis contra Averroystas de humanarum animarum plurificatione, ad catholicoe fidei obsequium 23 titre: eximii sacroe theologioe metaphysicoeque monarchoe. Magistri Antonii Trombete, Patavini, Ordinis Minorum provincioe S. Antonii ministri, Quoestio de animarum humanaarum pluralitate conrtra Averroym et sequaces, in studio Patavno determinata البندقية، 1498.

(9) Falsam illam et ab omni vertitate alienam opinionem Averrois de unico intellectu confirmare argumentis tentavit, usqee adeo ut plebeii et minuti philosophi, qui hebeti et rudi ingenio contrarjam opnionem, quamvis verissimam, defendere non poterant, in vulgus jactarent eum totam pene Italiam in hunc perniciosum errorem compulisse, Roccoboini, De Gymn Patave (بتافيا، 1592)، نوده، De Gug, Nipho ص 134، Judicium، ص 28، على رأس طبعة «رسالة في الأخلاق والسياسة»، لنفيوس، (باريس، 1614، بابادوبولي، Hist gymn Pat، جزء1، ص 291.

تَعَلَّم نيفُوسُ الرشدية[1]، ثم عَدَلَ فِرنياسُ عن هذه الآراء الخَطِرَة، فقد أَلَّفَ كتابًا ظهر سنة 1499[2] مؤيِّدًا فيه خلودَ النفس وتعدُّدَها، وكان الكتاب قد أُهْدِي إلى بطرك أَكِيلِه، دُمنيك غريمانَي، الذي اعترف له فِرْنياسُ باستعداده لتحويل لقبه فيلسوفًا إلى لقب كاهن قانونيّ[3]، وكان هذا التغيير بسبب مواعظ رئيس الدولة أُوغُسْتَن بَرْبَارِيغُو وأُسْقُف بادُو، بيَار بارُزِّي، الذي أَنْقَذَ نِيفُوسَ من ديوان التفتيش فيما بعد وحَمَلَه على إصلاح ضَلَالَاته أيضًا، وكان الخصام قد اتَّسَع قَبْلًا فخَرَج من نطاق المسائل المنطقية ليَدْخُل دائرةَ الفلسفة الخُلُقية والدينية، وها نحن أولاء نَبْلُغُ ساعةَ مدرسة بادُو المَجيدة، نَبْلُغ مدرسةَ نِيفُوسَ وأشيلِّيني وبُنْبُونا.

6 - كفاحُ بُنْبُونا وأَشِيلِّيني

وفي سنة 1495 يُهْمَلُ الشيخُ فِرْنياس الذي كان قد اتفق له من الامتياز المنقطع النظير ما يُدَرِّس معه بلا خصم، ويتذمَّرُ تلاميذُه، ويَعَارَضُ ببيارَ بُنْبُونا تنبيهًا له[4]، ويُفْتَح ببنْبُونا عصرٌ جديد لمدرسة بادُو، وقد حُصِرَت الفلسفةُ البادُويةَ حتى الآن ضِمْنَ حدودٍ مما بعد الطبيعة غيرِ خَطِرة، ولم يكن بولسُ البندقيُّ وفرَا أُرْانُو وغَايْتَانُو التيانيُّ، وفِرْنياسُ أيضًا، غيرَ شُرَّاحٍ، وما كان ليَجُول تحت هذا الغلاف الغليظ أيةُ حياةٍ أو فكر، وليست الجُرْأَةُ في غير الألفاظ، ولم يَكُن اللسانُ الفلسفيُّ المُصَفَّى عشرين مرةً ليُخْفِيَ شيئًا، وعاد علم النفس لا يَكُون غيرَ قعقعةِ ألفاظٍ طَنَّانةٍ ومُجَرَّداتٍ أُتِمَّت، وعلى العكس يُمَثِّلُ بُنْبُونا فكرَ عصره الحيَّ في الحقيقة، وذاتيةُ النفس الإنسانية والخلودُ والحكمةُ الإلهية وجميعُ حقائق الدين الطبيعيّ هي لتي أُدْخِلَتْ إلى القضية وغَدَتْ في جميع إيطاليا موضوعَ أشدِّ ما يكُون من نقاش، وإِذْ كان بُنْبُونا يُوضِحُ أرسطو وابنَ رشد وَفْقَ القاعدة عَرَفَ أن يَسْتَهْوِيَ الشبيبة وأن يتفلسف لا رَيْبَ، ويتكلم بُول جُوف بما يُثِيرُ العجبَ عن الحقيقة بلهجةٍ كان يَعْرِف أن يَبْسُطَها في دروسه، وبهذا عاد لا يَكُون سِكُلَاسيًّا، بل ظَهَرَ رجلًا عصريًّا.

---

(1) نوده، إ.س، نيسرون، جزء18، ص 54.

(2) Volens occurrere rumori falso qui ab invidis et malevolis excituatus fuerat, et venenatum susurrum tollere qui de eo in angulis fiebat, Averroem maleficae opinionis perfidum et vanum auctorem certissimis argumentis refellere aggressus est، ريكوبوني، الكتاب المذكور سابقًا، ص 135، راجع فاكسيولاري، Fasti gymn Pat، قسم 2، ص 106، تومازيني، Gymn Pat، ص 280، 399، (أوتيني، 1654).

(3) Serpans se non superphilosophi sed canonici titulo aliquando usurum

* ريكوبوني، المصدر نفسه.

(4) فاكسيولاتي، قسم 2، ص 106، 109.

وكان لابدَّ من اسمٍ جديد لسَتْرِ هذا الاتجاه الجديد، فوُجِدَ اسم الإسكندر الأفروديسيّ، وبِذَا عاد ابنُ رشد لا يُهَيْمِن وحدَه، أي إن ابن رشد الذي أُلْزِم بِشَطْرِ المدرسة عاد لا يَلْتَزِمُه غيرُ بعض الأسماء، ولن تَكُون هذه الأسماءُ أشهر الأسماء دائمًا.

وهذا هو أساسُ الحزبين الفلسفيين المعروفين باسم الإسكندريين والرشديين، وما كان لِيَجِبَ أن يُعْزَى إلى هذا التفريق أيةُ أهمية مع ذلك، وبَلَغَ مسيو رِتّرُ من الأمر ما شَكَّ معه في وجود هذين الحزبين[1]، ومما لا رَيْبَ فيه، على الأقلِّ، أن التحديد بينهما ليس من الإحكام ما يُحَاولُ معه افتراضُه، وأن قليلًا من المعلمين في القرنِ السادسَ عشرَ مَنْ يُمْكِنُ أن يَصَنِّفُوا تصنيفًا قاطعًا بين الرشديين والإسكندريين، ويقوم تقسيمُ المشائين الحقيقيُّ في عصر النهضة على مَشَّائي العرب ومَشَّائي اليونان، فهذا التقسيم لا يطابق التقسيمَ القائم على الإسكندريين والرُّشْديين، وكان المُتَثَقِّفُون باليونانية، كلئونيكُوس تُومُوس، يُجْعَلُون خارج المنازعات السِّكُلَاسية، ولِذَا فإن من الخطأ أن يُعَلِّقَ بعضُ مؤرِّخي الفلسفة، كَتِنَّمَان مثلًا[2]، أهميةً كبيرةً على هذا التقسيم الذي لم يَقُمْ على غير عبارةٍ لمَرْسِيل فيشين[3] لا يُوصَلُ إليها بدراسة المصادر مطلقًا.

وفي الغالب يُعَدُّ خلودُ النفس نقطةَ اختلافٍ بين الإسكندريين والرُّشديين، والحقُّ أن الخلودَ كان، حَوَالَيْ سنة 1500، مُعْضِلةً يَدُور الرُّوحُ الفلسفيُّ حَوْلها في إيطاليا، فكان تلاميذُ إحدى الجامعات، إذَا ما أرادوا تقديرَ مذاهب الأستاذ منذ الدرس الأول، جَهَرُوا بالقول له: «حَدِّثنا عن النفس!»[4]، وما أصابت به المذاهبُ السياسية التي دُرِّسَتْ في القرنِ السادسَ عشرَ، شعورَ الإنساني الخلقيَّ من اهتزازٍ كبير حَوَّلَ هَمَّ النفوس من هذه الناحية، وكان الرشديون يَحْفَظُون الظواهر بقولهم إن العقل يعود إلى الله بعد الموت وإنه يَفْقِدُ فيه ذاتيتَه، واعْتَنَقَ بُنُبُونا رأيَ الإسكندر الذي كان يُنْكِرُ الخلودَ تمامًا، وناهض بُنُبُونا في كتابه «خلود

(1) Gesch der neurn Phil، قسم1، ص 367، وما بعدها، وعلى العكس بالغ مسيو سانتوفانتي في معارضتها، (وثائق فيوسو، ذيل، جزء9، ص 547 وما بعدها).

(2) Gessh der Phil، جزء9، ص 63.

(3) Totus fere terrarum orbis a Peripateticis occupatus in duas plurimum sectas divisus est. Alexandrinam et Averroicam. Illi quidem intellectum nostrum esse mortalem exjstimant, hi vero unicum esse contendunt: utrique religionem omnem funditus aeque tollunt, praesertim quia divinam circa homines providenttam negare videntur, et utrobique a suo etiam Aristotele defecisse (Praef in Plot Apologia، ص 237. مقارنة بك، ميراند).

(4) ك، بارتولمس، مادة بنبونا، في معجم العلوم الفلسفية، ص 161.

النفس»، حين تظاهر باحترام الأُرْثُدُكسية، مذهبَ الرُّشديين على أنه ضلالٌ فظيع بعيدٌ من رأى أرسطو أصاب القديسُ توما[1]، في تفنيده، وتَلُوح وحدةُ النفس له خيالًا مستحيلًا خاليًا من المعنى[2]، وحَمَلَ على الرشديين بشدةٍ تلميذُ بُنْبُونَا، سيمونُ بُورْتا النابُوليُّ، الذي سار على مِنْهَاج أستاذه في التأليف ضِدَّ الخلود، لائمًا إياهم على رَدِّ المعرفة إلى تَذَكُّر، وعلى افتراضهم أن عقل الطفل كاملٌ كعقل الرجل، ومِثْلُ هذا ما حَمَلَ به لوكُ على أفكار ديكارْتَ الفطرية[3]، وسوف نَرَى بعد قليلٍ ما بُذِلَ من جُهْدٍ في تَفْنِيد بُنْبُونا الذي وُكِلَ أمرُه إلى الرشديِّ نِيفُوسَ من قِبَلَ ليُونَ العاشر، وهكذا يَغْدو الرُّشديون، الذين مَثَّلُوا حتى الآن إنكارَ شخصيةِ الإنسان، مدافعين عن الخلود وأركانًا للأُرْثُدُكسية ضِدَّ بُنْبُونًا ذاتَ وقتٍ، والواقعُ أن الرشدية كانت تُمَثِّلُ ضَرْبًا من الروحانية إذا ما قيست بدهرية الإسكندريين المطلقة، وكانت نظريةُ العقل الفَعَّال بقولها بأصل المعرفة الأعلى وحقيقتها الظاهرة تُقْصِي النظريات الحاسِّيَّة، وكذلك كان يُرى، حَوَالَيْ أواسطِ القرنِ السادسَ عشرَ، ظهورُ فِيتُو الذي نَفَضَ الغُبَارَ عن نفسه في كتابه «العقل الرَّبَّانيّ والإنسانيّ» (بادُو، 1555) فناهض الرشدية مناهضةً شديدة باسم الاختبارية[4].

ولِذَا كان من الخطأ صَفُّ بِيار بُنْبُونا وسيمون بورْتا بين الرشديين وربطُ مذهبهما في الخلود بمذهب ابن رشد ما دام بُنْبُونا لم يَدْعُ إلى سلطة الإسكندر إلا لقهر الرشديين[5]، ومع ذلك فإن هذه البلبلة التي أصاب بِيلُ وبُروكِرُ في إظهارها لم تكن من غير أساس، وذلك أن الفلسفة الإيطالية، إِذْ أَفْلَتتْ من المناقشات المُجَرَّدة في القرون الوسطى، انتهت إلى إجمالِها في بضع مسائلَ دهريةٍ بسيطةٍ إلى الغاية، أي إبداع خلود النفس من قِبَلَ مشترعين حفظًا للأمة، وكَوْنِ الإنسان الأول صُوِّرَ بعِلَلٍ طبيعية، وكَوْنِ المعلولات العجيبة ليست سوى مخادَعات وأوهام، وكَوْنِ الدُّعَاءِ والتضرُّع إلى الأولياء وعبادةِ بقايا أجساد القِدِّيسين أمورًا لا تأثيرَ لها، وكَوْنِ الدِّين لم يُحْدَث إلَّا لبُسَطاء العقول[6]، وهذا ما كان يُسَمَّى الرُّشدية وهذا كان يؤيده أربابُ

---

(1) Tam luculenter, tam subtiliter adversus hanc opinionem sanctus doctor invehitur, ut sententia mea, nihil intactum, nullamque responsionem quam quis pro Averroe adducere potest impugnatam relinquat, totum enim impugnat, dissipat et annihilat, nullumque Averroistis refugium relictum est, nisi covitia et maledicta in divinum et sanctum virum خلود النفس ص 8، 9.

(2) Figmentum maximum et inintelligibile, monstrum ab Averroe excogitatim

(3) بولي، التكملة، ص 551 وما بعدها.

(4) بولي، التكملة، ص 561.

(5) Secutus Aphrodisaei placita, cujus dogmate ad corrumpendam juventutem dissolvendamque Christianae vitae disciplinam nihil pestilentius induci potuit بولي جوفي، Elogia، فصل 71، ص 164)، راجع بروكر، جزء4، ص 162، بيل، مادة بنبونا، تعليق ب.

(6) يعد كنبانللا المكيافيلية والرشدية فرعين متوازيين من مذهب أرسطو، راجع بروكر، جزء4، ص 472، 473، جزء5، ص 110.

العقول في المحاضرات وحَلَقَاتِ الأدب متظاهرين بوَضْع ممثِّل هذا المذهب فوق الإنجيليين والرُّسُل جاعلين من مؤلَّفاته قراءتَهم المفضَّلة[1]، وتُعَدُّ رشديةُ رجالِ المجتمع الراقي هذه رشديةَ بُنْبُونا، وليس عليه إلَّا أن يَخْطُوَ قليلًا حتى يُجَدِّد تجديف «الدَّجَّالين الثلاثة»[2]، ويُعَدُّ ظهورُ الأديان (الشرائع) وانحطاطُها نتيجةً لتأثير النجوم[3]، وقد فَتَرَت النصرانية وعادتْ لا تَكُون من القوة ما تُبْدِع معه معجزاتٍ[4]، وما يقال عن هذا البرهان ذي الحَدَّين حِيَال العناية الإلهية حيث يتلذَّذُ بخُبْثٍ واضح؟ «وإذا كانت الأديانُ الثلاثة باطلةً عُدَّ جميعُ الناس ضالين، وإذا كان لا يُوجَدُ منها غيرُ دينٍ واحدٍ صحيح كان الدينان الآخران باطلَين، ومن ثَمَّ تَكُون الأكثريةُ ضالَّةً دائمًا»، وهل مَضَى زمنٌ طويلٌ على الوقت الذي كان يناقَش فيه حَوْلَ مسألة معرفة أيِّ المشترعين الثلاثة كان أحسنَ توفيقً فنال أتباعًا أكثرَ من الآخرين[5]؟ حتى إن تعبير «الشرائع» و«المشترعين» الذي يَتَّخِذُه فلاسفةُ إيطالية للدلالة على الأديان ومؤسسيها اسْتُعِيرَ من ترجَمة مؤلَّفات ابن رشد التي اشتملت على كلمة «الشريعة» بمعنى الدين والقانون، وأُطْلِقَ في الطَبَّعَات الإيطالية عُنوانُ «مقال في الشرائع» على عبارة «تهافت التهافت» التي أصرَّ فيها ابنُ رشدٍ على مقارنةِ ما بين الأديان بُجُرْأَة فرُفِعَت من قِبَلَ المُحَشِّي لغرض واضح[6].

وكذلك فإن معارضةَ نظامِ الدين والنظامِ الفلسفيِّ، التي رأينا في جميع القرون الوسطى أنها خَط الرشديين الفارقُ، هي أساس مِنْهَاج بُنْبُونا، فبُنْبُونا الفيلسوفُ لا يعتقد الخلود، ولكن بُنْبُونا النصرانيَّ يعتقده، وبعضُ الأمور حقيقةٌ لاهوتيًّا، ولكنها ليست كذلك فلسفيًّا، ويَجِبُ أن يُعْتَقَد، من الناحية اللاهوتية، أن التوسُّلَ بالأولياء واستخدامَ بقايا أجساد القديسين من أكثر ما يَكُون تأثيرًا في المَرْضَى، ولكنْ يَجِبُ أن يُعْتَرَف، من الناحية الفلسفية، بأنه يَكُون لعظام

---

(1) Audivimus italos quosdam qut suis et Aristoteli et Averroi tantum temporis dant, quantum sacris litteris ii qui maxime sacra doctrina delectantur, tantum vero fidei quantum apostiolis et evangelistis ii qui maxime sunt in Christi doctrinam religiosi, Ex quo nata sunt in Itali pestifera illa dogmata de mortalitate animi et divina circa res humanas providentia, si verum est quod dicitur: nihil enim praeter auditum habeo ملشيور كانوس، (De locis theolK 1K 10K twg 5).

(2) خلود النفس، فصل 14.

(3) Hujusmoidi legislatores, qui Dei filii merito nuncupari possunt procurantur ab ipsis corporibus coelestibus De incant 1، 12 ،، ص 293

(4) Quare et nunc in fide nostra omnia frigescunt, miracula desinunt nisi conficta et simulata, nunc propinquus videtur esse finis.المصدر نفسه، ص 286.

(5) Menagiaa، جزء 4، ص 286 وما بعدها.

(6) معارضة، جزء10، ص 351 (طبعة 1560).

الكلب المَيِّت من التأثير ما لتلك البقايا إذا ما استُنْجِدَ بها مع الإيمان[1]، ولم يَجِدْ أحرار الفكر، في أربعة قرون، ما هو أحسنُ من ذلك حيلةً للاعتذار عن جُرْأتهم في نظر علماء اللاهوت، والضغطُ يؤدي إلى الحيلة دائمًا، والضميرُ يحتجُّ وينتقم لنفسه باحترامٍ ساخرٍ من القيود التي تُفْرَض عليه.

ولِذَا فإنه إِذَا ما طُبِّقَ اسمُ الرشديين على هذه الأسرة، من المفكِّرين الجَزِعين الساخطين بفعل الضغط، الكثيرةِ العدد في إيطاليا في القرون الوسطى، والتي كانت تستتر باسم الشارح، وَجَبَ أن يُوضَع بُنْبُونا في صفِّ الرشديين الأول[2]، ولكنه إذا ما قُصِدَ بالرُّشديِّ أحدُ أنصار المذهب القائل بوَحدة العقل كان هذا الاسمُ من قلة المطابقة لبُنْبُونا ما كانت معه جميعُ حياته كفاحًا مستمرًّا ضِدَّ محامي الرشدية: أَشِيليني[3]، وفضلًا عن ذلك فقد عُومِلَ ابنُ رشدٍ في مؤلَّفَاته بأقصى الشِّدَّة، وذلك أنه يَجِدُ آراءه من مخالفة الصواب وعدم المعنى ما يَشُكُّ معه في وجود شخصٍ نَظَرَ إليها بعين الجِدِّ وفي كَوْنَ ابن رشدٍ نفسه قد أَدرَكَها[4].

وبما أن بُنْبُونا قُدِّم مِثْلَ مؤسِّسٍ للإسكندرانية، وإن لم يُلَاحَظْ عنده أيُّ ارتباطٍ مِنْهَاجيٍّ في الإسكندر، فإن سِيَاقَ الأمر كان يَقْضِي بأن يَعْدُوَ أشيلِّيني رئيسَ الرشديين، ويَكُون هذا التصنيف مصنوعًا إِذَا ما زُعِمَ أن أشيليِّيني قال بوَحدةِ الأرواح والخلودِ الجَمَاعِيّ حقيقةً، وعلى ما كان من اعتراف أشِيليِّني بأن مذهب ابن رشد مطابقٌ لمذهب أرسطو في هذين الأمرين فإنه يَنْبِذُ هذه النظرياتِ بصراحةٍ لمخالفتها للدين[5]، بَيْدَ أنه إِذَا ما نُظِرَ إلى الأمر من ناحيةٍ أخرى وُجِدَ أن أشيلِّيني يستحقُّ اسمَ الرشديِّ، وذلك من حيث الأهميةُ التي يُعَلِّقُها على الشرح الأكبر ومن حيث أسلوبُه السِّكُلاسِيّ وادعاؤه العلميُّ، ولا شيءَ في مدرسة بادُو أشهرُ من

---

(1) Quae omnia, quanquam a profano vulgo non percipiuntur, ab istis tamen philosophis, qui soli sunt dii terrestres et tantum distant a caetris, cujuscumque ordinis sive conditionis sint, sicut homines veri ab hominibus pictis, sunt concessa et demonstrata, De incant، ص 36.

(2) ,ومن الصواب قول فانيني:

Petrus Pomponatius, philosophus acutissimus, in cjujs corpus animum Averrios commigrasse phythagoras judicasset.

* Amphith, Exerc، 4، ص 36.

(3) فسح هذا الدور من تاريخ مدرسة بادو في المجال لكثير من الأغاليط، وأظهر بيل (مادة بنبونا، تعليق ب) خطأ من يضعون بنبونا بين الرشديين، وكان بروكر قد اقترف ذات الخطأ في البداءة (جزء1، ص 826)، ثم أصلح هذا الخطأ (جزء3، ص 162) وكذلك ليبنتز وقع في ارتباك من هذه الناحية، (معارضة، جزء1، ص 73).

(4) راجع هـ ريتر، Gesch der neuern Phil، جزء1، ص 393.

(5) هـ ريتر، المصدر نفسه، ص 383 وما بعدها.

منازعات بُنْبُونا وأَشِيلِّيني، وكان الفوزُ يُكْتَب لأشيلِّيني في النظريات الشرعية، ولكن الجُمهور كان يَحْكُم لبنُبُونَا بتزاحمه على دروسه[1]، وقد حَمَلَتْهما جمعيةُ كَنْبِره في سنة 1509 على نَقْلَ ميدان نزاعهما إلى بُلُوني، وقد دام اصطراعُهما في بُلُوني إلى أن ماتا حَوَالَيْ سنة 1530.

والحَقُّ أن أشيلِّيني ليس سوى مِحْجَاجٍ، ليس سوى مُوَاصِلٍ للمدرسة البادُوِيَّة المُسِنَّة حيث كان ألزمُ الصفقات يقوم على البراعة في التمرينات العامة والجُرْأَة على ضَغْط الخصم ورَبَاطةِ الجأش في الأجوبة، وكان، كجميع الرشديين، يحاول أن يَظْهَر أُرْتُدُكْسِيًّا مع رجوعه بلا انقطاع إلى التفريق بين النظام اللاهوتيّ والنظام الفلسفيّ[2].

7 - الإسكندريون والرشديون، مَجْمَعٌ لا تِرانَ الدينيّ

وهكذا فإن هذه المذاهبَ، التي رأينا أنها انتهت في زمن بتْرَارَكَ إلى التستُّر والائتمار في الظلام، صارت في أوائل القرنِ السادس عشرَ فلسفةَ جميعِ إيطاليا الرسميةَ تقريبًا، وكانت المناقشاتُ حَوْل خلود النفس في جَدْول الأعمال بِبَلَاطِ لِيُونَ العاشر، وكان بِنْبُو لا يَكْتُم وَلَعُه ببنُبُونَا، وبِنْبُو هذا هو الذي أَنْقَذَ الفيلسوفَ من الإحراق، وهو الذي أَخَذَ على عاتقه إصلاح كتاب «خلود النفس»، وهو الذي نشَرَ بُنْبُونا في حِمَاه دِفَاعًا ضِدَّ نِيفُوس، وكان جميع ذوي الوجاهة في البَلَاط يُكَرِّرون أقوالَ الرشدية الإلحادية المعهودة كلَّها، أي كَوْنَ الجحيم من اختراع الأمراء، وأن جميعَ الأديان تشتمل على أقاصيص، وأن الصَّلَوَاتِ والقرابينَ من ابتداع الكهنة، وليس زِنْديقٌ «قُدَّاس بُلْسِينَ» غيرَ رشديّ، وكانت القرونُ الوسطى تَنْطَحُ هذا الكافر، الذي يَجْرُؤ على الشَّكِّ أمام دم يَسُوع، لو ظَهَرَ فيها، وهذا هو الفرق! فرفائيل قد جَعَلَ منه وجيهًا ظريفًا يَلْمحَ المعجزة لَمْحًا لطيفًا ومِثْلَ رجلٍ كاملِ العقل عالمٍ بسبب الأشياء

(1) نيسرون، جزء 36، Init، تيرابوشي، جزء 6، ص 492، بابادوبولي، Hist gymn Patav، جزء2، ص 298، طبعت كتب أشيليني في البندقية عدة مرات، وذلك في السنين 1508، 1545، 1551، و 1568، ومن الغريب أن نقرأ في معجم العلوم الفلسفية أنه لم يصل إلينا أي مؤلف منه.

(2) ويبدو أكثر حرية في الكتابة الشامخة على قبره في سان مرتينو ماجيوره بيولوني:

Hospes, Achillinum fumulo qui auaeris in isto
Falleris, ille suo junctus Aristoteli
Elysium colit, et quas rerum hic discere causas
Vix potuit, plenis nunc videt ille ocuiis
Tu modo, per campos dum nobilis umbra beatos
Errat, dic longum perpetuumque Vate.

قارئٍ لابن رشد. وليس لغير إنقاذ الظواهر ما كان يُبْتَعَدُ عن الشِّدَّة في الحين بعد الحين، فكان بُنْبُونَا يُفَنِّدُ ويُدْعَمُ سِرًّا، وكان نِيفُوسُ يُعْطَى مالًا لتخطئته، وكان بُنْبُونَا يُحَرَّض على الرَّدِّ عليه، وماذا كان يُنْتَظَر من جِدٍّ في مرسومٍ بابويّ مُذَيَّل بتوقيع بِنْبُو آمرٍ باعتقاد الخلود؟ كان الفرقُ الذي يَفْصِلُ في هذا بين الإسكندريين والرُّشديين لا يكاد يُدْرَك تقريبًا، وكان الإسكندريون يعترفون اعترافًا صريحًا بنتائج مذهبهم التي كان الرشديون لا يَتَخَلَّصُون منها إلا بأكاذيب دقيقةٍ، وتَرَى المنهاجَ والروحَ والميولَ الإلحادية أمورًا واحدة لدى هذين الفريقين، ويعارضهم مَرْسِيل فيشين و ج.أ. مَرْتَا[1] وغَسْبَار كُنْتَارِيني[2]، ثم أنطوان سِرْمُنْد بعَيْنِ البراهين، ويَشْمَلُهما مجمعُ لاتْرَانَ الدينيُّ بذات الحكم عليهم.

ولم يَبْذُل مجمعُ لاترانَ غيرَ جُهْدٍ واهنٍ ليقف إيطاليا في الطريق التي كانت عليها، والتي أَمْكَنَ رَدَّ الفعل الكبير الناشئَ عن زلزلة الإصلاح أن يُخَلِّصَها منها وحدَه، والواقعُ أنه إذا لم يُنْظَرْ إلى غير نَصِّ المرسوم البابويّ اعْتُقِدَ أن الأمرَ يَدُور حَوْلَ حَمِيَّةٍ أَنْقَى أُرْتُدُكْسِيَّة، وقد أُدْرِكَتْ في جميعُ مَهَارب مدرسة بادُو، ويَحْكُمُ المجمعُ على من يقولون إن النفس ليست خالدةً، ومَنْ يَزْعُمون أنها واحدةٌ في جميع الناس[3]، ومن يذهبون إلى أن هذه الآراءَ صادقةٌ فلسفيًّا[4] وإن كانت مخالفةً للدين، وفضلًا عن ذلك فإنه يأمُر أساتذةَ الفلسفة بتَفْنِيد الآراء الإلحادية بعد عرضها[5] كما يُلْزِم بتعَقَّب مُثيرِ هذه المذاهب الممقوتة على أنهم زنادقة كافرون، ثم يَحْظُر على الإكْليرُس إنفاقَ أكثرَ من خمس سنين في دراسة الفلسفة والشعر إذا لم يضيفوا إليهما دراسة علم اللاهوت والقوانين الكنسية.

وهذا المرسومُ البابويُّ مؤرخٌ في 19 من ديسمبر 1512، وفي السنين التي عَقَبَتْ ذلك بَلَغَ الجِدَالُ الذي أثاره بُنْبُونا أعلى درجات الشدة والجُرأة، وظهر كتابُ «خلود النفس» في

---

(1) Apologia de animoe immortilitate, cum digressione, quod intellectus De Anima et mente humana sit multiplicatus وهو مضاف كتفنيد إلى اللسيمون بورتا.

(2) وإذا كتب كنتاريني ضد بنبونا رأي أنه مضطر إلى تفنيد وحدة العقل (بولي، ص 550).

(3) مجمع لاتران، V. Sessio (لاب، مجمع، جزء19، مجموعة 842).

(4) Quumque verum vero minime contradicat, omnem assertionem veritati illumnatae fidei contrariam omnino falsam esse definimus. المصدر نفسه.

(5) Insuper omnibus et singulis philosophis districte praecipiendo mandamus ut, quum philosophorum principia aut coclusiones in quibus a recta fide deviare noscuntur auditoribus suis legerint, quale hoc est de animae mortalitate aut unitate, et mundi aeternitate, ac alia hujusmodi, teneantur veritatem religions christanae moni conatu maneifestam facere, ac omni studio hujusmodi philosophorum argumenta, quum omnia solubilia existant pro, viribus excludere atque resolvere المصدر نفسه.

بُلُوني سنة 1516، ولِذَا لم يَكُنْ لمرسوم لاتْرَانَ كبيرُ تأثير، وارتفعتْ بعضُ الأصوات في المَجْمَع تأييدًا للمذاهب المحكوم عليها[1]، وإن كانت هذه الأصواتُ قليلةً، أَجَلْ، إن كُنْتِلُورِي يَذْكُر أمرًا مؤرخًا في 13 من يونيه 1518 قُضِيَ فيه بتَعقُّبِ بُنْبُونا مِثْلَ مُتَمَرِّد على مَجْمَع لاتران[2]، بَيْدَ أنه لم يَكُنْ لهذا الأمر أيَّةُ نتيجة كانت كما يَظْهَر، وقد تُلقَىَ المرسومُ بجِدٍّ أكثرَ من ذلك في إسبانيا، فيُؤكِّدُ لنا كاتبُ سيرةٍ لريمُون لُول كان يعيش حَوَالَيْ ذلك التاريخ أن هذا المرسوم كان يُتْلَى في كلِّ سنة تلاوةً رسمية في جامعة بَلْمَا[3]، وأنه نَفْسَه وَضَعَ، للإعراب عن ابتهاجه بهذا الحادث المبارك، قصيدةً جُعِلَ فيها لِيُونُ العاشر مساويًا لِفِرْدِيناندَ الكاثوليكيِّ غَيْرَةً ضِدَّ الإلحاد[4]. والواقعُ أن هذا البابا البارعَ كان لا يستحقُّ مِثْلَ هذا المديح، فقد بَلَغَ من الالتفات إلى النِّقاش ما لا يُفَكِّرُ معه في إحراق المكافحين، وكان عن لَذةٍ في رؤيته داومَ هذا النِّقَاشِ، أكثرَ مما عن إغلاقٍ له، أمرُه عالمَه اللاهوتيَّ المُؤْتَمَنَ، أُوغُسْتن نِيفُوسَ، بتفنيد بُنْبُونا.

8 - أُوغُسْتَن نِيفُوس

كان أولَ ما بدأَ به نِيفُوسُ ظهورُه رشديًّا جريئًا[5]، فلما خَرَجَ من مدرسة فِرْنيا أَلَّفَ رسالته «العقل والشياطين» التي أثارت لَغَطًا في بادُو، وفي هذه الرسالة أيَّدَ رأي أستاذه في وَحدة العقل وَجدَّ في إثباته عدمَ وجود عقولٍ منفصلة غيرِ العقول التي تسيطر على حركات الأجرام

(1) R.P.D. Nicolaus, episcopus Bergomensis, dixit quod non placabat sibi quod theologi imponerent philosophis disputantibus de veritate (1. unttate) intellectus, tanquam de materia posita de mente Aristotelis, quam sibi imponit Averrois, licet secundum veritatem talis opinio est falsa, Et R.P.D Thomas, generalis ord, praedicatorum , dixit quod non placet secunda pars bullae, praecipiens philosophis ut publice persuadendo doceant veritatem fidei. لاب، مجموعة 843).

(2) Petrus de mantua asseruit quod anima rationalis, secundum principia philosophiae et mentem Aristotelis, sit seu videatur mortalis, contra determinationem concilii Lateranensis. Papa mandat ut dictus Pertus revocet, alias centra ipsum procedatur 13 jun, 1518 رنك، تاريخ البابا، جزء1، فصل 2: 3.

(3) Acta SS. Junii، جزء 5، ص 678.

(4) Ille reos fidei flammis ultricibus arcet

Toque peregrinum dogma vagumque permis

Vos duo sufficitis gestis et voce Leones

Omina sub Christi millere regna jugo.

(5) لم يصنع جميع من تكلموا عن نيفوس، مثل نيسرون وبيل وبروكر وتيرابوشي، إلخ، غير نقل السيرة الموجزة التي وضعها نوده على رأس طبعة رسالة نيفوس في الأخلاق والسياسة (باريس 1614)، وليس تاريخ موت نيفوس ثابتًا، ومما لاحظه نوده أن نيفوس كان حيًا في سنة 1545 ما دام قد أهدى كتابه إلى بولس الثالث في هذه السنة، حتى إنه أمكنه أن يقول مثل هذا عن سنة 1549، ما دمنا نقرأ في عنوان طبعة شرحه على الطبيعيات في هذه السنة كلمة:

.Post multas editiones per eumdem octorem in ultima ejus oetate summa diligentia recognita atque ampliata ...

السماوية، وفي هذه الرسالة بلغت قلةُ الاحترام لبراهين القديس توما وألبرت ضِدَّ ابن رشدٍ ما وَجَبَتْ معه حماية أُسْقُفِ بادُو التقيِّ السَّمْحِ بارُوزِّي لانتزاع المؤلف من صَوْلة التُّوماويين، وقد حَثَّه بارُوزِّي على حَذْف بعض العبارات من كتابه، وقد ظهر هذا الكتاب مع هذه التصحيحات في سنة 1492[1]، وقد جَعَلَه هذا العارضُ أكثرَ تَعَقُّلًا، وذلك أنه انضمَّ إلى الأُرْثُذُكْسية وغَدَا كاثوليكيًّا غَيُورًا، فأبصرته بادُو وساليرمُ وروما ونابلُ وبيزَا بالتتابع يُعَلِّمُ رشديةً مُلَطَّفةً بأسماء سُوسَّانُوس وأُوتِيشْيُوس وفِيلُوتوس، واتَّخَذَت شرُوحُه على كتب «جوهر الأجرام السماوية» و«سعادة النفس» ولاسيما «تهافتُ التهافت» مكانًا لها في جميع الطَّبَعَات بجانب مُتُون ابن رشد، وذلك من غير أن نتكلم عن طائفة من الرسائل التي كان يَنْشُرها سنةً بعد سنة، وبَدَا ناشرًا لابن رشد بنفسه، وظهرتْ طبعةٌ كاملةٌ في 1495 - 1497 تحت إشرافه، فاستُنْسِخَتْ بعد ذلك كثيرًا، وما انفكَّ الكُتُبِيُّون، بعد هذا الزمن، يَوَدُّون إضافة آراءٍ مشهورة بين المعاصرين، وهكذا فإن اسمِ نيفُوس صار ملازمًا لاسم ابن رشد، فإذَا كان ابنُ رشدٍ وحدَه هو الذي أدرك أرسطو فإن نيفوسَ وحده هو الذي أدرك ابن رشد[2].

وفضلًا عن ذلك فإن نِيفُوس كان شديدَ الحِرْص على عدم مناقرة علماء اللاهوت، وقد تظاهر في شرحه على «تهافت التهافت» باستعماله تعبيرات «أما نحن النصارى... أما نحن الكاثوليك...» بلا انقطاع، وتَبْدُو تعليقاتُه الهامشيةُ ذاتَ تَهَكُّم لاذع[3] وكُتِبَ له توفيقٌ كبير في روما، وجعله ليونُ العاشِر كُوْنَت بَلَاطٍ وأَذِن له في تَقَلُّد أسلحة آل مِديسيس، وظَهَرَ كتابُه «خلودُ النفس»، الذي هو تفنيدٌ لكتاب بُنْبُونا، في البندقية سنة 1518، ويَلُوح أن نِيفُوس كان أحدَ فرسان الصِّناعةِ الأدبية الكثيرةِ الشيوعِ بإيطاليا في القرنِ السادسَ عشرَ، وكان، كالإيطاليِّ

---

(1) ومع ذلك فإن نيفوس يؤكد في مقدمته أنه لم يمح لما هو مخالف للمذهب الكاثوليكي، وهو قد أضاف قوله:

Satis mihi sit, Petrum Barotium, episcopum Patavinum Christianorum nostrae aetatis decus et splendorem,» <.et cul non minus in fide quam in philosophia tribuo,.. defensorem habuisse

Solus Aristotelis nodosa volumina novit (2)

Corduba, et obscuris exprimit illa nodis

Gloria Parthenopes, Niphus bene novit utrumque

Et nitidum media plus facit esse die

* وضع جيروم باترني هذه الأبيات على رأس شرح نيفوس للجزء الثاني عشر مما بعد الطبيعة (البندقية 1518).

Non potest intelligere Averroes quod Deus sit in omnibus: quam rudis* Male intelligis, bone vir, sententiam (3) .**Christianorum I

* ص 302 (طبعة 1560).

** المصدر نفسه، ص 119، 175، 206.

الطُّفَيْلِيِّ، يَعْرِف أن يُلْهِيَ أساتذتَه بحَذْلقات فِسقه، فَيْرضَى بالدَّوْر الهَزْلِيّ، وأن يَدْفَع حِصَّته بنكاتٍ، وكانت رسائلُه السياسية والخُلُقية رائجةً، وكان مَوْضِعًا لحسن التفات شارْلكَن، وكان له شرفُ الوقوع من أميرات زمنه موقعَ الرِّضَا[1].

وما كانت هذه الخِفَّةُ في الطبع لتَسْمَحَ بتَلَقِّي مذهبِ نِيفوسَ الفلسفيِّ جِدِّيًّا، وإذا نظَرَ إلى علمه النفسيِّ من الأساس وُجِدَ أنه علمُ توما النفسيُّ الذي كان قد ناهضه في البُداءة، وذلك أن العقل، الذي هو صورة الجسم، قابلٌ للكثرة العددية، وهو يُخْلَقُ حين اتصاله بالمَنِيِّ، ويَبْقَى حَيًّا بعد البَدَن[2]، ولم يَعْرِف الخَلْقَ أرسطو ولا ابنُ رشد، ومع ذلك فإنه لا يعارِض مبادئَ المَشَّائين في كَوْنِ الله يُنْشِئُ شيئًا جديدًا بتحوُّل العلة المادية إن لم يَكُنْ بتحول ذاته، والذي يَرْفِضُه أرسطو على إطلاقه هو الخَلْق في الزمن، ولكن لا شيءَ يَمْنَع من افتراض الخَلْقُ القديم بمَنْحِ العدم أسبقيةً عقلية[3]، ويختلف نِيفُوسُ في هذه النقطة كثيرًا، ففي كتابه «خلود النفس» وفي الطبعة الأخيرة من شروحه ذهب إلى أن مبادئ أرسطو كانت لا تَرْفِضُ الخَلْق في الزمن، وأن هذا الفيلسوف عَدَّ العقل مخلوقًا. وكان نِيفُوسُ يُعَدُّ من رؤساء المدرسة الرُّشدية[4] على العموم، ومما لاحظه مسيو رِيتِّر أنه ناهض في طائفةٍ من المسائل مذهبَ الشارح، وأنه أظْهَر استخفافًا به في شرحه على الجزء الثاني عشر مما بعد الطبيعة[5]، وهو يُسَمِّي شروحه «الغامض خيرٌ من الشرح»، وهو يُصَرِّح بأنه لا يختار هذا المؤلِّف إلا لأنه مشهورٌ، ولأن التلاميذ لا يُرِيدُون أن يسمعوا قَوْلًا عن معلم آخر[6]، والواقعُ أنه يَغْمُره في مكانٍ

---

(1) أعدت رسالته (الجميل) المهداة إلى حنة الأرغونية الكولوناوية لإثبات كون جسم هذه السيدة كان عنونا الجمال المثالي لتناسبه الشامل، وناقش بيل باتزان في هذه النقطة حول مصدر المعارف الدقيقة بهذا المقدار (مادة حنة الأرغونية، تعليق، ب، س.د).

(2) In Phys auscult، ص 47 (فنسيا، 1549)، 2 ،De intellectu et doem 1.

(3) In Phys، ص 45، 47.

(4) Averrois sectatores qui nostro hoc aevo adhuc spirant, inter quos unus et caput est Suessanus.. etc (Ant, Brasavola في جوهر الأجرام السماوية، مخطوط، مكتبة فرار، رقم 304، ص 407).

(5) Averroes in ptaesenti commento fere dicit tot errata quot verba.. Magno miratu dignum est auonam pacto vir iste (Averroes) tantam fidem lucratus sit apud Litions in exponedis verbis Aristotelis, quum vix unum verbum recte exposuerit.

* H Rirter Gesch, der neuern Phil، قسم 1، ص 381 وما بعدها، راجع الشرح في تهافت التهافت، ص 60، 64، 177، 211 (طبعة 1560).

(6) Quum barbarus sit, Graecorum mentem ad plenum intelligere non potuit.. sed quia nostro tempore famosus est, it uta nullus videatur peripateticus nisi Averroicus, cogor ipsum exponere, Ades praeteria rogatus nostrarum scholarum. cui non parere difficile videtur (Philosophorum hac nostra tempestate monarchoe. Augustini Niphi Suessani. In duodecimum Metaph. ص 2 والمقدمة، فنسيا، 1518.

آخرَ بأعظم ثناء[1] ويَبْدُو قاسيًا تجاه ثالبيه[2]، ومن ضَيَاع الجُهْد أن يحاوَلَ التوفيقُ بين هذه الخلافات، ولا رَيْبَ في أن نِيفُوس يَكُون أولَ من يَتَبَسَّم من ذلك.

9 - زيمارا والرّشدية الأُرْتُدُكسية

قام التعليمُ الرسميُّ بيادو في جميع القرنِ السادسَ عشرَ على رُشْدِيةِ نِيفُوسَ السليمةِ وعادت كلمة الرشدية لا تُمَثِّلُ مذهبًا، بل اعتمادًا على الشرح الأكبر في تفسير أرسطو، وكان علماء اللاهوت بعيدين من معارضة مِثْلَ هذا التعليم كما هو الواقع، وكان يَنْطَوي هذا الإخلاصُ للمُتُون القديمة على احترام لنفوذها كان يَرُوقهم كما هو الواجب، والمُبْدِعون في الفلسفة والآداب هم الذين كانوا يَدْعُون هذا رُتِينًا وبَرْبريةً، وكان أكثرَ الرجال كَثْلَكَةً يُرِيدُون أن يُسَمَّوا رُشديين ضِمْنَ المعنى الذي أَوْضَحْنَا[3]، وقد شاهدتُ نسخةً خطيةً جميلةً لابن رشد في دَيْرَ شِيزَانُوفا بروما، وذلك داخلَ خِزَانةٍ مشتملة على كتبٍ كان يَمْلِكُها القديس فليبُ النِّيريُّ فتُحْفَظُ مِثْل ذخائر، وكانت الكنيسةُ تَرْضَى بدراسة أرسطو جَهْرًا، وكان الكَرْدِينالُ بَلَّافِيشيني يَذْهَبُ حتى إلى القولُ بأنه كان يُعْوِزُ الكنيسةَ بعضُ أمورٍ في عقائدها لولا أرسطو، ومن ثَمَّ كان تسليمُ الجميع بأن ابن رشد أحسنُ شارح لأرسطو، وقال أحد المعاصرين ليس في الـ «cruros» لتلاميذ فِيثَاغُورس ما يُثِيرُ حيرتنا، ما دُمْنَا نرى في أيامنا أن جميع ما قاله ابنُ رشد يُعَدُّ من المتعارفَات في نظر من يتفلسفون[4]، وكان أفخم الألقاب يُطْلَقُ عليه[5]، ثم عادت كلمةُ «الرشديّ» لا تتَضَمَّنُ أيَّ نوعٍ خاصٍّ من الرأي، وإنما صارت تَدُلُّ على شخصٍ دَرَس الشرحَ الأكبر كثيرًا فأصبحت مرادفةً لكلمة «فيلسوف»، كما صارت كلمة «الجالينُوسيِّ»

---

(1) Hic ex Graecis enarratoribus perinde atque ex optimis fontitibus philosophiam visus est non tam hausisse quam expressisse; qua e re solus commentatoris nomen sibi comparavit. Dii Immortales I quantum est (bonos sequ authores (In Phys auscult praef

(2) Quidem Averromastici, quorum studium potissimum est in reprehendendo Averroe (المصدر نفسه، ص 51، 53.

(3) قال الكردينال توله: Viros catholicos se et esse et dici velle, Apud Bruckerum، جزء6، ص 710.

(4) Cur omnibus bene philosophantibus viris adversabimur, qui tantum uno ore 6 ،طبعة 1553 Praef Junt Averroi tribuunt, ut enminem qui non Averrosita sit bonum unquam fore philosophum praedicent.. nec quemquam prosus philosophum putent qui huic audeat contradicere- Cf. mantinum praef. in libr, De Part et gener anim, L. Vivem, De causis corr. art1 انظر إلى المعارضة، جزء1، ص 410، بال 1555.

(5) Solertissimus peripateticae disciplinoe interpres, Altividus Aristotelicorum vestigator pentetralium, Magnus Averroes, philosophus consummatissimus Primarius rerum Aristotelicarum commentator.

تدلُّ على كلمة «الطبيب». وذاع في المدارس صيتُ مَرْك أنطوان زيمارا، من سان بَيار التابعةِ لمملكة نابل، وذلك بما بَذَلَ من جهودٍ حَوْل متن ابن رشد، وصار حَلُّه لما بين أرسطو وابن رشد من المناقضات، وفهارسُه ومطابقاتُه وتعليقاتُه الهامشية وتحليلاتُه، كما كانت تآليفُ نِيفُوس، أجزاءً مُتِمَّةً لجميع كُتُب ابن رشد، وكان ابن رشد يعاني في مدرسة بادُو نصيبَ جميع الأساتذة الكلاسيين فتُفضَّلُ الخلاصاتُ الحديثة، الأسهلُ استعمالاً وتداولاً، على مَتْن كتبه.

وتُعَدُّ الدقةُ وعدمُ الطلاوة نقيصتين مشتركتين بين جميع الرشديين، ولكن من الحقِّ أن يقال إنه لا أحدَ يَبْلُغ شأوَ زِيمَارَا في هذا المضمار، وكانت هذه البربريةُ آخذةً في الإملال حتى في بادو، وقد رأينا، فيما تقدَّم، تَخَلِّيَ تلك الحُظْوة العامة عن المتحذلق أشِيلِّيني وانتقالَها إلى بُنْبُونا، ومِثْلُ فقدان الحُظْوَة هذا ما لَقِيَ زيمَارا، فقد غَدَا أُضْحُوكةً ثقيلًا لدى التلاميذ، ولم يستطع أن يُعَلِّمَ أكثر من ثلاث سنين[1]، وفي كتابٍ مؤرخٍ في 6 من أكتوبر 1525[2] يُعْرِب بِنْبُو بلباقةٍ عن السَّأم الذي كان يُلْقِيه فيه هذا المنهاجُ القديم[3].

ومع ذلك فإن «حَلَّ المناقضات بين أرسطو وابن رشد»[4] الذي أُلِّفَ مُعْظَمُه نقلًا عن زِيمَارَا واقْتُطِفَ من قِبَلِ الجُونْتَ لا يَخلُو من فائدة، وذلك بسبب ما يشتمل عليه من فوائدَ كثيرةٍ عن أصحاب الحُظْوَة من الأساتذة بيَادُو، ومن الطرافة أن يُرَى في كلِّ مسألةٍ كانت تُثَارُ في ذلك الحين تَتَابعُ جِيل دُورُوم ووالتربُرْلِه وبيكَنْثُروب ويوحنا الجندونيّ وغريغُور الرِّيمينيّ وبولس البندقيّ وجاك الفُرْلِيّ وغايْتَانُو التِّيَانيّ وبُنْبُونا وأَشِيلِّيني ونيفوس، وأطرفُ من ذلك أيضًا أمرُ النوادر الخاصة ببرهنات جامعة بادُو التي نُقِلَتْ في ذلك الكتاب فتجعلنا شاهدِين على مناقشات هذه المدرسة المشهورة[5]، أَجَلْ، إنه سُلِّمَ بمذهب وَحدة العقل ضِمْنَ معنى

---

(1) فاسيولاتي، قسم 3، ص 274.

(2) أوبر، جزء3، ص 118، فنيزيا 1792.

(3) كتب رانوزيو يقول:

«Ii quale Otranto * e gia da ora tanto in odio di questi scolari tutti dall un capo all altro che se ne ridono con isdegno Perciocche dicono che ha dattrina tutta barbara e confusa, ed e semplice Averroista.. E costui pare che sia tutto barbaro e pieno di uella feccia di dottrina, che ora si fugge come la mala ventura State sicuro che questo povero studio quest anno, quanto alle arti, non ara quatro scolari, e sara l'ultimo di tutti gli studj, Mea nihil interest, se non in quanto essendo io di cotesta patria, mi duole di veder le cose che sono d'alcun momento all' onor pubblico, andare per questa via lantano da quello che si dee desiderare e procacciare.

* سان بياترو هي وطن زيمارا، وهي قرية صغيرة واقعة بالقرب من أترانتو، وكان الناس في إيطاليا يعرفون باسم مسقط رؤوسهم، كسوئسا في مقابل نيفوس، وقرطبة في مقابل ابن رشد.

(4) معارضة ابن رشد، جزء11 (طبعة 1560).

(5) مثلًا، ص 62، 134، 140، 212.

وَحدة مبادئ النفس المشتركة، ولكنْ مع نَبْذِ هذا المذهب جَهْرًا[1] ضِمْنَ المعنى القائلِ إنه لا يُوجَدُ غيرُ أصلٍ جوهريٍّ واحدٍ لعقل الإنسان، أَجَلْ، إن زيمارَا يَدْخل في دقائق الفروق حَوْلَ مختلف الألوان التي اتخذتها هذه النظرية في مدرسة بادُو وحَول الجهود التي بُذِلت للتوفيق بين هذه النظرية والدين[2]، ولكنه، وهو دائم الاحترام للشارح، أقلُّ ميلًا إلى تفنيده مما إلى إثباته كَوْنَ الأغاليط التي تُعْزَى إليه لا يَجُوز نسبتها إليه، والعقلُ الأول يُنْعِم بالوجود على المُحَرِّك الأول ومنه على الكَوْن، والمُحَرِّكُ الأول هو صورةُ الموجودات[3] كما أن السيد صورةُ عبده، والعقلُ الفَعَّال ليس اللهَ بذاته كما يُرِيدُ الإسكندر، ولا إحدى خصائص النفس البسيطة، وإنما هو جوهرٌ أعلى من النفس قابلٌ للانفصال غيرُ قابلٍ للفساد[4]، والصورةُ هي أصلُ الفُردَة، أي إن الصورة تفترض الهَيُولَي بالحقيقة مع أن القضية المقابلة ليست صحيحةً[5]، والنفسُ العاقلة قابلةٌ للانفصال خالدة[6]، وتَصِلُ إلينا الحقيقةُ عن طريقين، أي طريقِ الأنبياء وطريق الفلاسفة، ويَجِبُ أن يُصَدَّق الأنبياءُ عند الشكِّ عن تفضيلٍ[7].

وتَسَابَقَ جَمْعٌ مُجِدٌّ من الأساتذة مع نِيفُوسَ وزيمارَا في إيضاح كُتُب ابن رشد، فنشر أنطوان بُوزِي المُنْسِلِيسِيُّ فِهْرِسًا أعظمَ من فهرس زِيمارَا (1560 - 1572)، وقَدَّم يُولْيُوس بَلَامِيدِس جدولًا ثالثًا من ذات الجنس (البندقية 1571)، وألَّفَ بِرْنَارْدِن تومِيتَانُوس الفِلْتِرِيُّ حَلًّا للمناقضات في أقوال أرسطو وابن رشد مشابهًا لحُلول زيمارا وللبراهينِ حَوْلَ مسائل ابن رشد[8]، وألَّفَ فليب بُوني مطابَقَةً أخرى من ذات النوع، وأقبلَ التلاميذُ كلَّ الإقبال[9] على عدد كبير من الكتب المُزَاولة بعناوين: «منهاج قراءة ابن رشد، كنزٌ في ابن رشد، مطابقة في ابن رشد»، ووَاصَلَ مَرْك أنطوان باسِّيري وفَنسَان مادْيُو وكرِيزُسْتُوم وجان فرنسوا بُورَانا وجان

---

(1) ص 177.

(2) Isti sund medii inter Averroem et Christianos: volunt enim tenere unitatem intellectus cum Averroe, et volunt eam defendere cum principIls Christianorum, et ista non possunt stare.. Erubescant ergo mendacio velle tueri unitatem intellectus, imponendo ei illud quod non dixit.. ut ipsa tandem veritate coacti nullo pacto defendant unitatem imo potuis fatuitatem intellectus. المصدر نفسه، ص 210.

(3) المصدر نفسه، ص 120.

(4) المصدر نفسه، ص 172.

(5) المصدر نفسه، ص 147، 193

(6) المصدر نفسه، ص 152.

(7) Licet igitu Aristoteles ista non viderit, Nec philosophi, viderunt tamen ista prophetae, qui in superiori gradu sunt constituti quam philosophi, secundum sapientes et ideo stante discordia, in tatlibus potius prophetis credendum quam philosophis, quum ipsi intentiores Deo sint quam fuerint philosophi. المصدر نفسه، ص 207.

(8) عقب طبعة سنة 1574، راجع توما زيني، التقريظات، جزء1، ص 66، وما بعدها.

(9) راجع أنطونيو Bibil, hisp, vetus، جزء2 ص 401.

بابْتِسْت باغُولِيني وتلميذُ زِيمَارا، جِيرُوم ستِيفَانِلِّي، والترابُولِينيَان وفِكْتُور تِرْنَكافِلِّي، بدروسهم وكُتُبهم، عَنْعَنَاتِ التعليمِ نفسِه في أثناء جميع النصف الأول من القرن السادسَ عشرَ.

10 - تصحيحُ تَرْجَمَاتِ ابنِ رشد العامّ، الجُونْت وباغُولِيني

أدى هذا الرَّواج المنقطعُ النظير إلى تصحيح ترجَماتِ ابن رشد تصحيحًا عامًّا، وكان قد اكْتُفِيَ منذ الطبعة الأولى (بادو 1472) بإعادة طبع التَرجمات القديمة التي تَمَّتْ عن العربية في القرنِ الثالثَ عشر، وذلك كما وُجِدَت في المخطوطات، وقد حاول نِيفُوس وزِيمَارا إصلاحَها وجعلَها واضحةً، بَيْدَ أنهما لم يوَفَّقَا لذلك إلَّا جزئيًّا، وقد بُدِئَ، منذ أوائل القرنِ السادسَ عشرَ، بترجَماتٍ لاتينية عن الترجَمات العبرانية، ومما يَجِبُ ذكرُه هنا هو أن مخطوطاتِ ابن رشد العربيةَ كانت نادرةً إلى الغاية في ذلك الزمن كما هي في أيامنا، وأن المُتَضَلِّعين من العربية لم يكونوا أقلَّ نُدُورًا قَطُّ، وذلك على حين كان مترجمو اليهود كثيرين، واتَّفَقَ مثلُ هذا النصيب لابن سينا، وذلك أنه، بعد أن تُرْجِم عن العربية من قِبَلَ جِرَار الكرِيمُونيِّ تُرْجِم فيما بَعْدُ عن العبرية من قِبَل مَنْتِينُو وأندره ألْبَاغو البِلُّونيّ وجان سَنْكَرْبُر، إلخ، ومع ذلك فإنه يجب الاعتراف بأن الغاية المُبْتَغَاة لم تُنَلْ، فالترجَماتُ عن العبرية أَغْلَطُ من ترجمات القرنِ الثالثَ عشر وأشدُّ غموضًا منها[1].

وكَانت الأيدي تتداول هذه الترجَماتِ مخطوطةً منذ زمن طويل، وذلك حينما وَضَع الجُونْتُ تصميمَ طبعةٍ كبيرةٍ كاملة لابن رشد مُفَوِّضين الأمرَ إلى جان بابْتِسْت باغُولِيني الفِيرُونيِّ المعروفِ في بادُو مِثْلَ فيلسوف[2] وفي البندقية مِثْلَ طبيب، وكان للترجَمات الجديدة من ذلك نصيبٌ وافرٌ جِدًّا، واحْتُفِظَ بالترجَمات القديمة لبعض الرسائل، ولاسيما الشروحُ على الطبيعيات ورسالةِ السماء وما بعد الطبيعة والأخلاق إلى نيقوماخس، ومما حدَث أحيانًا أن طُبِعَت الترجَمتان على عمودين متوازيين كما وَقَعَ لبعض الأقسام المهمة من كتاب النَّفْس، ومما حَدَث غالبًا أن صُحِّحَت المتونُ القديمة بالترجَماتِ الحديثة والترجمات الحديثة بالمتون القديمة، وترجمت للمرة الأولى بعض التلخيصات التي ظَلَّتْ غيرَ مطبوعةٍ حتى ذلك الحين، وأُبقيت تعليقاتُ زِيمَارا الهامشية، ووُضِعَ تقسيمٌ أكثرُ صَلَاحًا، وقُسِّمَت التلخيصات والشروحُ

(1) راجع يوسفيني Bibil select، جزء2، 1: 12، فصل 16، 18، ريشارد سيمون، تكملة إلى ليون المودينى، ص 121 (باريس 1710).
(2) راجع فاسكيولاتي، 3، قسم 3، ص 302، مافي، Verona illustre، قسم 2، مجموعة 168، 169 (فيرونا، 1732).

الوسطى ووُضِعَتْ بعد المتون، وأَظْهَرَ باغُولِيني غَيْرَةً عظيمة في هذا العمل[1]. ومات تعبًا قَبْلَ إتمام عمله، وأَشْرَف مَرْك أُدُو على النشر الذي وقع في السنتين 1552و 1553.

وكان يعقوب مانتيو اليهوديُّ، المولودُ في طُرْطُوشةَ من الأندلس، وطبيبُ بُولَ الثالثِ[2]، بالغَ الجِدِّ بين المترجمين الذين أقدموا، في القرنِ السادسَ عشرَ، على إصلاح مَتْنِ ابن رشد وَفْقَ الترجمة العبرية، فقد أعاد النظر في جميع الشروح وحدَه تقريبًا، وقد تناول باغُولِيني في أوراقه ما حَكَم بملاءمته من الأقسام وأهمل البقية، وسيُرى، بالحقيقة، أن أعمال هؤلاء المترجمين الجُدُد مضاعَفةٌ غالبًا، وأن الكتاب عينَه كان يُتَرْجَم من نَوَاحٍ كثيرةٍ معًا.

وأُولِعَ أبراهامُ البَلْمِسِيُّ، المولودُ في لِتْشة بمملكة نابل والطبيبُ بيَادُو والمعروفُ بين اليهود كعالِمٍ نَحْوِيٍّ، بمؤلفات ابن رشد المنطقية من فَنِّ خَطابةٍ وصِناعة شعر[3] على الخصوص، وانتفع باغُولِيني بترجَماته لإصلاح ترجَمات ماتينو مُفَضِّلًا إياها في الجَدَل وبراهين الحكمة المموهة والخَطابة وجوهر الأجرام السماوية[4].

والأستاذُ بيادَوُ، جان فرنسوا بُورَانا الفيرُونيُّ[5]، هو النصرانيُّ الوحيد الذي يَظْهَرُ في جدول المترجمين هذا، ومن الراجح جِدًّا أن يكون بُورَانا قد انتحل عَملَ بعض اليهود، وذلك لأنه لا يُمْكِن أن يُفْتَرَض وجودُ نصرانيٍّ في ذلك الزمن كان يستطيع أن يُتْقِنَ اللغةَ العبريةَ الرَّبَّانية بعضَ الإتقان ليُتَرْجِم، ولو تَرْجَمةً متوسطة، من المُتُون الكثيرة الصعوبة، ولِمَ، فضلًا عن ذلك، تَكَلُّفُ ذاك العناءِ مع وجود رجالٍ من اليهود حَوْلَه مستعدين للقيام بذلك من أَجْلَ بعض الدراهم؟ وقد عُزيت معرفةُ العربية إلى بورانا كما يَلُوح، ويُسْتَنْتَجُ من الوثائقِ غيرِ المطبوعة التي كانت بين يَدَيْ مافِّه، على الأقلِّ، كَوْنُه قد تَرْجَم مؤلَّفاتٍ يونانيةً كثيرةٍ، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإن بُورانا يَظْهَرُ في طبعةِ الجُونْت لشروح التحليلات التي لم يَكُنْ عليها قَبْلَه سوى بيانات

---

(1) استحق من معاصريه هذا المديح الرفيع:

Tantum et Aristoteles Bagolino et Corduba debent Quantum humus agricolae debet operta rubis

طبعة 1553، ص 2.

(2) ماريني، Degli Archiatri Pontificij (روما، 1784)، جزء1، ص 292، 367، فولف، 1، ص 666، 3، ص 515، أنطونيو، جزء1، ص 467، كرمولي، تاريخ أطباء اليهود، ص 145، وما بعدها، وقد اتخذ فولف بعض ترجمات مانتينو على أنها مؤلفات أصلية.

(3) راجع فولف، 1، ص 70، ريشارد سيمون، تاريخ العهد القديم الانتقادي، ص 666، شتاينشنايدر، (قائمة أكسفورد)، غير مطبوعة: كلمة ابن رشد.

(4) تقرأ ترجمته لتلخيص صناعة الشعر في طبعة 1560، وكان باغوليني قد فضل عليها ترجمة مانتينو.

(5) فاكسيولاتي، قسم 2، ص 115، ما في، Verona illustrata، قسم 2، ص 126، 127، خدع ما في وفاكسيولاتي بعنوان طبعة 1539، فذهبا إلى أن ابن رشد وأبا الوليد ابن رشد مؤلفان مختلفان.

متوسطة، وكان ما أَلَّف قد طبع سنة 1539، ويَتَوَجَّع مَرْك أُدُّو كثيرًا من عَيْبٍ هذه الترجَمة التي اضْطُرَّ إلى إصلاحها بترجمة مانْتِينُو[6].

وقَدَّم بُولسُ الإسرائيليُّ تلخيص رسالة السماء ومقدمةَ الجزء الثاني عشر مما بعد الطبيعة، وقَدَّم فيتَالِ نِسُّوس تلخيصَ رسالةِ الكَوْن، وظَهَرَ طبيبُ نابل، كَلُوكَلُونيمُوس، مترجمًا لتهافت التهافت ولمقالةٍ في «اتصال العقل المفارق[7]»، وتُعَدُّ ترجمتُه أكملَ من الترجَمة التي قام بها كَلُونيموس بن كَلُونِيمُوس بن ميئير عن العربية في سنة 1328، والتي طُبِعَتْ مع شرح نِيفُوس[8] في سنة 1497، وإذا عَدْوَت هذا وَجَدْت له قليلَ فخرٍ بهذا العمل، ولا أَعْرِفُ هل يُوجَدُ مَتْنٌ أقلّ منه وضوحًا، ومن الصواب قَوْلُ بُوكوك[9] إنه يستحقُّ لقبَ «الهَدَّام» مضاعَفًا، وكذلك فُولْفُ يَعْزُو إلى كَلُو ترجَمةَ مسائل ابن رشد الطبيعية مع شرح موسى الأربونيّ[10].

ويشتمل مخطوطٌ في المكتبة الإمبراطورية (أساس قديم 6507) على ترجَمةٍ لاتينيةٍ للشرح الأوسط على الطبيعيات تَمَّتْ عن العبارة العبرية لزِرَحيا بن إسحاق وظَلَّت غيرَ منشورة فأكملها في 7 من يناير 1500أستاذُ الفنون والدكتورُ في الطبِّ، فِيتَاليس دَكْتِيلُومِيلُوس، بأمرٍ من بطريرك أَكِليه: الكردينال غريمَانِي، ومع ذلك فإن هذه الترجَمة مجهولةٌ تمامًا.

وكذلك عُدَّ إِلْيَادِلْ مِديغُو بين اليهود الذين حاولوا مَنْحَ مدرسة بادُو عبارةً لابن رشد أكثرَ وضوحًا، ويقال إنه ترجم «جوهرَ الأجرام السماوية»، وشرحَ الآثار العلوية[11]، والمسائلَ البرهانية الأولى المطبوعة في البندقية لدى أَلْده (1477)، والشرحَ الأوسط على أجزاء ما بعد الطبيعة السبعة الأولى المطبوعة للمرة الأولى في طبعة 1560[12]، وقد حال الموت دون إتمامه هذا العملَ الأخير، ومن الممكن أيضًا أن حُسِبَ من الترجَمات كثيرٌ من الشروح التي أَلَّفَها على الرسائل الرشدية.

وعانت كُتُبُ ابن رشد الطبية مِثْلَ نصيب كتبه الفلسفية، وشُعِرَ، في أواسط القرن السادسَ عشرَ، باحتياجٍ إلى تَرْجَمتها مُجَدَّدًا وإكمالِها وتَنْقِيحها، ومن ذلك أن ابن أخي سِنْفُورْيَان شَنْبِيه

(6) Praef، طبعة 1553، ص 7. (7) انظر إلى الصفحتين 200، 201 السابقتين.

(8) وهذه الترجمة الأخيرة هي التي تكلم عنها ناشرو البندقية، Vetustiori posthabita، راجع غوش، الغزالي، ص 269 وما بعدها.

(9) Ad Portam Mosis، ص 118.

(10) المكتبة العبرية 1، ص 19، شتاينشنايدر، قائمة أكسفورد غير المطبوعة، المادة المذكورة، رقم 27، 28، أخطأ تمان (مادة ابن رشد في موسوعة إرش وغروبر) خطأ غريبًا حين ذكر أن الناشر بونتوس لوكاتلوس هو مترجم التهافت (البندقية 1497).

(11) برتولوشي، جزء1، ص 14، بازيني، 1، ص 55.

(12) كان من الخطأ ذهاب الناشرين إلى أن هذه الترجمة هي من العربية.

وطبيبَ هنري الثاني، جان بانْتِسْت برُويرَان شَنْبِيه، تَرْجم، أو حَمَلَ على ترجَمة، الجزء الثاني والجزء السادس والجزء السابع من الكليات، فجَمَعَ هذه الأجزاءَ تحت عُنوان «المجموعة الطبية»، وكذلك ترجم مانْتِينُو بعضَ فصولٍ من الجزء الخامس ونَقَّحَ أندرِه ألباغُو البِلُونيُّ شرحَ أُرْجُوزة ابن سينا، ونُشِرَت «مقالة في التِّرْياق» وَفْقَ أوراق جَرَّاح البندقية: أنْدره دِلَّا كرُوس.

ولم يَصْنَع الجُونْتُ في طَبَعَاتهم اللاحقة غيرَ استنساخ طبعة 1553، وتَشْهَدَ مقدماتَهم بأن هذه الكتب كانت رائجةً جِدًّا، فكانت كلُّ طبعةٍ تَنْفَد في سنتين أو ثلاث سنين كأكثر الكتب المدرسية استعمالًا.

11 - معارضةُ الرشدية، معارضةُ مَشّائي اليونان

وما كان مِثْلُ هذه الرِّياسة لتُعْوِزَها إثارةُ رَدِّ فعلٍ عنيف، وكانت الأرسطوطاليسية العربية المُتَجَسِّمَة في ابن رشد من العوائق الكبيرة التي يلاقيها مَنْ يَعْمَلُون بنشاطٍ بالغ في ذلك الحين لإقامة ثَقافة عصرية على أنقاض القرون الوسطى، ولم يَعْرِف الروحُ الثوريُّ في إيطاليا له حَدًّا قَطُّ، ولم يَلْبَث ابنُ رشد أن عُدَّ سامًّا ظلاميًّا جَلَّادًا للجنس البشريّ أهلك العالَم بقلمه كما أهلكه الإسكندر بسيفه، وهكذا اعْتُدِيَ على جلال ابن رشد بدَوْرِه، فصار هذا العربيُّ، هذا الجافي، هدفَ تهكمات جميع المُثَقِّفين، وذلك أن علماء اللغة، من متخصصين باليونانية وأفلاطونيين وبُقْراطيين، أُعْجِبُوا بأنفسهم لاهتدائهم إلى اليونانية الصحيحة فَغَدَوْا مُزَدَرِين كلَّ الازدراء لتلك اليونانية المُحَرَّفة المُتَزَيِّدَة التي كانت تُوجَدُ لدى الأساتذة العرب، وبِذَا قُضِيَ على هذه السِّكُلَاسية الشائكة وهذه المَقُولات الهزيلة وهذه الرَّطانة الجافية بأن تَظْهَر ثقيلةً، أكثرَ مما في أيِّ وقت، لدى مَنْ جُذِبوا بالثَّقَافة السكلاسية إلى شكل جميل سليم من طراز التفكير، وسابقًا كان بِتْرَارْك يَجِدُ أن مطالعةَ أرسطو غيرُ مستحبَّةٍ كثيرًا[1]، وصَرّح جميع علماء الآداب القديمة بصوتٍ واحدٍ أن ابن رشد مبهمٌ خالٍ من المعنى غيرُ جدير بأن يَقِفَ انتباهَ المُثَقَّف، وغَدَت الأمثالُ تُضْرَب بغموضه، وعُدَّ أنصارُه أناسًا يريدون أن يَجِدُوا معنًى لِمَا لا معنى له[2].

(1) De sui ipsuis et mult ignor (معارضة، جزء2، ص 1051، طبعة هنريكتري).

(2) Ipsum obscurum, jejunum barbare et horride omnia scribentem refugiendum putant, Av. Opp Praef، طبعة 1552، ص 6.

وجَعَلَت السَّكُلَاسيةُ، بابتعادها عن مَتْنِ أرسطو وبوضعها الشارحَ موضعَ الفيلسوف ودفاترَ الأساتذة موضعَ الشرح، لنفسها أرسطوطاليسًا اصطلاحيًّا كان يشابه أرسطو الحقيقيَّ كما يشابه التاريخُ السَّكُلَاسِيُّ لبيَار كُومِسْتُورَ نَصَّ التوراة العبريَّ تقريبًا، وما كان من نَقْص الترجَمات وخطأ المخطوطات وطَبَعاتِ القرنِ الخامسِ عشرَ الأولى جَعَلَ مطالعةَ مَتْنِ أرسطو المتصلةَ أمرًا متعذِّرًا تقريبًا، أي أنه كان يُكْتَفَى بمقابلة ما بين العبارات التي تَعْرِضُ معنًى وبعضَ المبادئ المتفق على عَزْوها إلى أرسطو ليُقَام بذلك منهاجٌ[1]، والحقُّ أن إظهارَ النصِّ اليونانيّ لأرسطو يُعَدُّ اكتشافًا لمَتْن جديد، فصَرَّح جميعُ الألِبَّاء، منذ ذلك الزمن، بأنه لم يَبْقَ غيرُ أمرٍ واحد يُصْنَع، وهو أن تُتْرَك ترجَماتُ القرون الوسطى وشروحُها تحت غُبارِها، وذلك للبحث عن المشائية الصحيحة في المَتْنِ وحدَه، بَيْدَ أن الزُّتينَ لا يَعُدُّ نفسَه مغلوبًا مطلقًا، فما انفكت الترجَماتُ والشروح العتيقة تَكُون ذاتَ أنصارٍ كثير حتى بعد أن جَدَّد اللِّيسيه القديمةَ تِيُودُور غازا وورجُ الطَّرَابْزُونيُّ وأرْجِيرُوبُولُ وإرْمُلَاوُ بَرْبَارُو، ومن ثَمَّ كان ذلك الصِّرَاعُ المستحرُّ بين الأرسطوطاليسية العربية، الباحثةِ عن أرسطو في ابن رشد، والأرسطوطاليسيةِ الإغريقية الباحثةِ عن أرسطو في متنه اليونانيِّ وشُرَّاحه من اليونان كالإسكندر الأفْرُوديسيِّ وثامسطيوس، إلخ.

وفي 4 من أبريل 1497 صَعِدَ نِقُولا تُومُوس في كرسيِّ بادُو التدريسيِّ لتعليم أرسطو باليونانية[2]، ونَظم بنبُو قصيدةً إشادةً بهذا الحادث العظيم الذي سيفتح عصرًا جديدًا في تدريس الفلسفة، ويستحقُّ لِيُونِيكُوس أن يُعَدَّ مؤسِّسَ المشائية اليونانية الانتقادية[3] بشدة جَدَله ضِدَ السَّكُلَاسية وبتعليمه الطبيِّ البُقْرَاطيِّ الخالص وجمال أُسلوبه وَوَضعه الخَطابيّ، وقد حَفِظَه حِلْمُ طبعه من الشتائم، حتى إنه كان من التأدُّب ما وُجَدَ معه ابنَ رشدٍ شارحًا ممتازًا[4]، ثم إنه يستند إلى علم ابن رشد في النَّفْس للتوفيق بين أرسطو وأفلاطون وتقريرِ سَبْقِ وجود

---

(1) Solent quidem plerjque ex duobus vel tribus Aristotelis dictis dogma intergrum fabricare, Ex omnibus tamen qui construxerit enminem vidi باتريزي، النقاش المشائي، 1، 13، ص 113، فنزيا، 1571.

(2) أي وفق المتن اليوناني، ولا يستحق الرأي الذي حمل ليونيكوس إلى التدريس باليونانية أن يناقش فيه (فاكسيولاتي، قسم1، ص 55 - 56).

(3) Philosophiam ex purissimis fontibus, non ex lutulentis rivulis salubriter hauriendam esse perdocebat, explosa penitus sophistarum disciplina, quae tunc inter imperitos et barbaros principatum in scholis obtinebat quum doctores, excogitatis barbara subtilitate figmentis.. et juventus in gymnasio Arabum et barbarorum commentationes secuta, a recto munituoque intinere in confragosas ignorantiae crepidines ducerentur (بولوس جوفيوس، لدى بروكر، جزء4، ص 156، و157)، راجع باتريزي، النقاش المشائي، 1: 12، ص 106 (فنيزيا 1571)، تيرابوشي، جزء7، قسم2، ص 422 (طبعة مودين).

(4) Averroes exquistissimus Aristotelis interpres (Graecos semper excipio

الأرواح وخلودها[1]. وهكذا فإن جميع أَلِبَّاء القرنِ السادسَ عشرَ يَشْهَرُون حربًا صليبةً على برابرة الفلسفة والطبِّ[2]، وعادت الشبيبةُ، وهي تَتْرُك تَمَحُّكاتِ السُّكَلَاسية، لا تُفَكِّرُ في غير تَعلُّم اليونانية لمطالعة أرسطو، ولم يَكَد المتحذلقُ زيمَارَا يَجِدُ مستمعين لابن رشد[3]، وحَدَثَ مِثْلُ هذه الثورة في الطبِّ، وعاد بقراطُ وجالينوس لا يكونان معصومَيْن من الضلال في غير اليونانية، قال توما جيونْتَا في مقدمة طبعته لابن رشد: «كان أجدادُنا لا يَجِدُون أمرًا بارعًا في الفلسفة أو الطبِّ إلا والعربُ مصدرُه، وأما جيلُنا فيَدُوس علمَ العرب، ولا يُعْجَبُ بغير ما يُسْتَخْرَج من كنوز اليونان، ولا يَعْبُدُ غيرَ اليونان، وهو لا يريد غيرَ اليونان أساتذةً في الطبِّ والفلسفة والبرهنة، فمن لم يَعْرِف اليونانية لا يَعْرِف شيئًا، ومن ثَمَّ أتت هذه المماحكات والمنازعات التي بلغت من الاشتداد بين الفلاسفة، وبين الأطباء، ما يَمُوت معه المَرْضَى عن تَرَدُّدٍ أكثرَ مما عن مَرَضٍ لِمَا لا يَعْرِفُون أيّ المذاهب يعتمدون[4]» وكذلك أخبرنا جان برُويرَان في مقدمة مجموعة ابن رشد التي دُوِّنت سنة 1537 أن شبيبة زمنه كانت تستخفُّ بأطباء العرب، ولا تُرِيدُ أن تَسْمَعَ ذِكْرًا لهم[5].

12 - المعارضة الأفلاطونية: مَرْسيلِ فيشين

وكان بَعْثُ الثقافة اليونانية، الذي تَجَلَّى في بادو والبندقية وشمال إيطاليا بالرجوع إلى نَصِّ أرسطو الحقيقيِّ، يَتَجَلَّى في فلورنسا بالرجوع إلى أفلاطون، وتَظْهَرُ فلورنسا والبندقية قطبي الفلسفة في إيطاليا ظهورَهما قطبي الفنِّ فيها، وتُمَثِّلُ فلورنسا وتُسْكَانَا مَثَلَ الفنِّ

(1) هـ. ريتر Gesch, der neuern Phil، قسم1، ص 377.

(2) نقرأ النصيحة الآتية في عنوان طبعة أرسطو (باريس 1531 Ex officina Simonis Golinaei: Nunc ergo, o juvenes, ex Aristotelico opere, ceu ex proprio fonte purissimas haurite delibateque aquas, peregrinas autem tanquam viles lacunas insalubresque. Trinacriae lacus devitate. Omne enim malum studiis inseminatum fere ast, quod authorum literis dimissi ipsisque authoribus, ad vana glossemata sese totos contulere, et eos qui non essent authores (ac si apes fucos sequerentur) pro ducibus et delegerunt et secuti sunt

(3) قال بنبو في خطابه، الذي كنا ذكرناه، إلى رانوزيو:

Il quale autore a questi di si lascia a parte dai buoni dottori, ed attendesi alle sposizioni de'commenti greci, ed a far progreso ne testi.

* أوبر، جزء3، ص 118 (فنزيا، 1729)، أوعز إلى الأساتذة، منذ نقل جامعة بيزا إلى فلورنسا، ألا يخلطوا بين المتن والشرح في دروسهم وألا يوضحهما على نمط واحد، فابروني، Hist, Acad Pisanoe، جزء1، ص 284 وما بعدها.

(4) طبعة 1552، ص 2-3.

(5) Plerique mones juniores medici jam intolerabile in Arabum Mauritanourmque dogmata oidum conceperunt, ut ne nominandi citandive locus relinquatur: principes enim Hippocratem atque Galenum habere nos praedicant.

الأعلى والرُّوحانيةَ في الفلسفة، وتُمَثِّل البندقية وبادو وبُلُوني ولُنْبَارديةُ التحليلَ والمذهبَ العقليَ والذهنَ الوضعيَّ الصحيح، وأفلاطونُ وحدَه كان يناسب محاوراتِ كاريجي وحدائقَ رُوشِلِّي، وأرسطو وحدَه كان يناسب معاهدَ البندقية الرَّصينة، ويُمْكِنُ أن يُحَارَ عند أول نظرةٍ من كَوْن مدرسةٍ رَزَانٍ مُتَزَيِّدَةٍ، كالتي نحاول رَسْمَ تاريخها، مدرسةً رسميةً لمدينةٍ يَسُرُّ الخيالَ أن يَكْتنفها بهالةٍ شعرية، ولكنه إذا ما نُظِرَ إليها عن كَثَبٍ رُئِيَ أن هذه المدرسة تامَّة الملاءمة للخُلُق البندقيّ وأنها في الفلسفة مِثْلُ تِيسْيَانَ وتِنْتُورِه في فنِّ التصوير، وتَنْطِلقُ الفلسفةُ والشعرُ من المبدإِ نفسه من حيث الأساسُ، وليست الفلسفةُ غيرَ نوعٍ من الشعر كغيرِها، وتُعَدُّ البلدانُ الشعرية بلدانًا فلسفية، والواقعُ أن ظاهرةَ الخلُقِ البندقيِّ ليست في الفنِّ ولا في الشعر، وما كنيسةُ مار مَرْقُس إذا ما قِيسَتْ بقبة بِيزَة؟ ومن يُطِيقُ النظر إلى إحدى صُوَرَ العذراء بالبندقية بعد أن يَرَى صُوَرَها في سيان وبِيرُوز؟ ادْرُسُوا هذه الرؤوس القوية البادية في الاحتفالات البندقية لجَنْتِيل بِلِّيني أو بارِي بُرْدُون، فهل التفكيرُ أو الخيالُ هو الذي يَتَجَلَّى فيها؟ كَلَّا، بل الحزمُ، بل العملُ، هنا تَرَى كهولةَ الرجل البالغ أَشُدَّه كما تَرَى معنى أمور الدنيا الصحيحَ الثابتَ بدلًا من زهرة الشباب التي تتفتح على ضِفَاف الأَرْنُو إلى الأبد، حَقًّا لم يَكُنْ لدى البندقية ما تَحْسُدُه عليه فلُورَنْسا من حيث حريةُ الفكر، ولم يَحْدُث في مكانٍ أن بَلَغَ تَحَلَّل الرأي وعدمُ الاحترام حِيَالَ الأشياء المقدَّسة ما بلغه هناك في القرون الوسطى، أي أن الارتياب بلغ هناك حدًّا لم تُعْتَقَدْ كراماتُ القديسة كَتِرينة السيانية معه وإن شاهدها جميعُ أهل سيان! وهل عُبِّرَ عن مبدإِ المقارنة بين الأديان الإلحاديِّ بوَقاحةٍ أكثرَ مما في قصةِ ديكَامِيرُون الثالثة؟ والحقُّ أن جوابَ اليهوديِّ مَلْكِيصَادَق إلى صلاح الدين، هذا الجوابَ الذي وُجِدَ بالغَ الحكمة من قِبَلَ بُوكاس، والذي كان يؤدي إلى إيقاد مَحَارِقَ كثيرةٍ في بقية أوربا، لم يُثِرْ غير تَبَسُّم لطيف في فلُورنسا، وأن الإلحاد الفلورنسيَّ الضاحك الخفيف كان يستسلم لنَشْوَةِ حياةٍ عِطْرِية من الشباب والبهجة، وذلك بدلًا من حُلَّة التَّزَيُّد التي كان يَتَلَفَّفُ فيها الإلحادُ البندقيُّ، وتَصِلُ البندقيةُ إلى الفلسفة بما تؤدي إليه مزاولة الأمور من عوائد الاطِّلَاب والتَّقَيُّد والروح العملية، وتَصِلُ إليها فلورنسا بصفاء ضمير تَنْفُذُ فيه جميعُ عناصر الخيال بانسجام وبذلك الهواء المُنْعِش البَهِج الذي يُتَنَفَّسُ به عند أسفل تلال فيزول.

ويُخْبِرُنا مَرْسِيل فيشينُ نفسه أنه أقدم على إنهاض العَنْعَنَات الأفلاطونية عن رَدِّ فعل ضِدَّ المَشَّائية الرشدية في البندقية، ولاح له الإلحادُ من التأصل ما لم يَجِدْ معه غيرَ وسيلتين لقَهرِه، وهما: الكراماتُ والدينُ الفلسفيّ، وهو إِذَا ما تَرْجم أفلاطونَ وأفلوطين فَلِرَجائه أن

يُتَقَبَّلَا، كفَيْلسوفين، بقبولٍ أحسن من قبول الأولياء والأنبياء لدى الجُمهور[1]، ويُسْتَخَفُّ بمُمَثِّل المشائية الإلحادية: ابنِ رشد، استخفافًا شديدًا، فهو لم يَعْرِف اليونانية، ولم يَفْقَهْ من أرسطو[2] شيئًا، ووُقِف الجزءُ الخامسَ عشرَ من اللاهوت الأفلاطونيِّ كلِّه على تفنيد الغول الرُّشديِّ، أي وَحدة العقل، ولم يُعْوِز الوضوحُ والدقةُ بَرْهنةَ فيشين، ومن قَوْلِه إن الإدراك في الفَرْضية الرشدية غيرُ خاصٍّ بإنسان، فالفعلُ الحرُّ والإرادة يَكُونان مستغَلقَيْن بذلك، ويُزَوِّد فنُّ التنجيم نفسُه ببراهين، أي أن الأرواح ليست واحدةً ما دام يُوجَدُ منها ما هو زُحَلِيٌّ وما هو مِرِّيخيٌّ وما هو مشتريٌّ وما هو عُطَارِديٌّ[3]، وكذلك فُنِّدَت النظرية الرشدية في العناية الإلهية، فاللهُ يَرَى كلَّ شيء في كُهْنِه، وهو لا ينفكُّ يُعْنَى بتغليب أَعَمِّ الخَيْرَات، وهو لا يحتاج إلى التحول عن عظائم الأمور لِيَرَى صغيرَها[4].وأَظْهَرَ جِيمسْت بليتُونُ وبِسَّارْيُون مِثْلَ هذا النفور، فرَفَضا النظرياتِ الرشديَة باسم الأفلاطونية[5]، وظَهَرَ بَتْرِيزِّي أكثرَ شِدَّةً، فبما أنه خُيِّلَ إليه، تَبَعًا للخطإِ المُكَرَّرَ غالبًا، أن السِّكُلَاسيين لم يَعْرِفوا أرسطو إلَّا من ابن رشد فإنه يَعُدُّ ابنَ رشدٍ مسؤولًا عن جميع نقائص السِّكُلاسية وعن هذه البلبلة في المسائل الدقيقة التي كانت قد أغارت على حقل الفلسفة[6].

13 - معارضةُ علماء الأدب القديم: لويس فِيفِس وبيك المِيرَنْدُولِيّ

يجب، للوقوف على النفور الذي كانت توحي به المشائية الرشدية إلى أجمل النفوس في عصر النهضة، أن يُعْرَفَ، عن تجربةٍ، أسلوبُ الكلماتِ الجافيةِ الشائكُ[7] وهذه المناقشاتُ

---

(1) Ut hac theologia in lucem prodeunte... Peripatetici quam plurimi, id est philosophi pene omnes, admoneantur non esse de religione, saltem communi, tanquam de anilibus fabulis sentiendum. (Praef. in Plotinum>)

(2) Averroes...graecae lignuae ignarus, Aristotelicos libros in linguam barbaram e graeca perversos potius quam conversos legisse traditur.. Resipiscant igitur quandoque Averroici, et cum Aristotele suo consentiant, Theol. plat، معارضة، جزء1، ص 327، و 342، طبعة هنريكتري، 1576).

(3) المصدر نفسه، ص 359.

(4) المصدر نفسه، 1، 2، ص 104، An ignoras, Averrois ipie, bonum, ipsum ordinis universi esse cujuslibet partis ordine praestantuis?

(5) Theol, plat، معارضة، جزء1، ص 327، بروكر، جزء6، ص 47. (6) النقاش المشائي، 1: 12، ص 106 (البندقية 1571).

(7) وهذا مثال طريف، ففي الجزء الثاني عشر مما بعد الطبيعة صار استعمال كلمة Allastogia مرات كثيرة (ص 337 وما بعدها)، ويسأل عن المعنى الذي تقدمه مثل هذه الكلمة إلى علماء بادو الذين كانوا يجهلون، لا ريب، أن هذه هي كلمة ..... المسبوقة بحرف التعريف العربي Al-stouchia.

الدقيقةُ وهذا الإسهابُ، أي هذه الأمور التي لا يُمْكِنُ الدفاعُ عنها، قال لويس فِيفِسُ: «أَجَلْ، لم يَكُنْ، فيما مَضَى، أجملُ من تأمُّلِ بُسْتان هذا الكون، بَيْدَ أن هؤلاء نصبوا صُلْبَانًا لتعذيب روح الإنسان[1] بدلًا من الأشجار والزهور[2]»، ولم تكن نظريةُ نِيزُولْيُوس في كتاب «حِيَالَ الجافي»، وأصرارُ المثقفين المتناهي على قولهم إن على الفلسفة أن تستعمل اللغة العادية وأن تَعِفَّ عن الأسلوب الفنيّ الذي كان يُطْلَق عليه اسمُ أسلوبِ باريس[3]، اقتراحًا صبيانيًّا أو وَسْوَاسًا بسيطًا من الخطيب، فلا إصلاحَ أكثرَ لزومًا من إصلاح اللغة، أي أن أول شرط للتقدم كان يقوم على تخليص الفكر من ذلك العائق الثقيل في الأسلوب السَّكُلَاسيِّ الذي كان يمنعه من كلِّ رقة[4].

وبِيكُ المِيرَنْدُوليُّ هو رجلُ هذا القرن الذي تَجَلَّى فيه اصطراعُ مختلف المشاعر، ولم يَكُنْ بِيكُ خاليًا من العُرُوبية في البُداءة، وكان الرشديُّ إلْيَا دِلْ مِديغُو أستاذًا له، وهو لم يتخلَّص من هذا الخمير الرديء تمامًا قَط، وتَشْغَل السَّكُلَاسية الجافية، ولاسيما ابنُ رشد، مكانًا واسعًا بين المسائل التسعمائة التي عَرَضَها من أَجْلَ مباراته الفلسفية الكبرى، وقال في «دفاعه»: «للعرب في ابن رشدٍ ثباتٌ ومتانة، وفي الفارابيِّ رصانةٌ وتفكير، وفي ابن سينا لاهوتٌ وأفْلَاطونية»،

---

(1) Nihil olim amoenius habebatur contemplatione horti hujus naturae... At isti, pro flosculis philosophiae et arboribus placidissimis, crucem ingeniis fiixerunt. De causis corr. art. I. V معارضة، جزء1، ص 413، بال 1555).

(2) وليفكر، بالحقيقة، في التأثير الذي يحدث في أمثال فالا وباربارو وبنبو من مثل العبارة التالية:

Quaelibet anima intelligit primum et se, hoc est suum esse, quod Dehaath appellatur, de secundis vero intelligit Zobar, quod dedit sibi suum esse.

وهنا يقال مع بيك الميروندولي:

Age, damus hoc vobis, ut non sit vestrum ornate loqui, sed vestrum est certe, quod nec praestatis, latine saltem, ut si non floridis, suis tamen verbis rem explicetis, Non exigo a vobis orationem comptam, sed nolosordidam, nonlo unguentatem, sed nec hircosam, non sit lecta, sed nec neglecta, non quaerimus ut delectet, sed querimur quod offendat.

* De amnio beat، ص 357، طبعة 1560.

** كان الرشديون يعتذرون عن جفاء لهجتهم بضرورة تقليد أسلوب أرسطو والاستخفاف بالكلمات اقتصارًا على الأفكار، (راجع مارسي الأوديسي، طبعة 1552، ص 6)، نيفوس، 12 ما بعد الطبيعة، بروم.

*** Epist, ad Herm Barbarum, inter Opp، بولسياني، باريس 1512، جزء1، ص 155.

(3) راجع فيفم، In Pseudodialecticos، معارضة، جزء1، ص 272 وما بعدها.

(4) يلخص نيزوليوس، في القضيتين الآتيتين، قيامه بـ Antibarbarus, seu de veris principiis et vera ratione philosophandi contra pseudophilosophs, Ubicumque et quotcumque dialectici metaphysicique sunt, ibidem et totidem esse capitales veritatis hostes. Quamdiu in scholis philosophrum regnabit Aristoteles iste dialecticus et metaphysicus, tandiu in eis et falsitatem et barbariem, si non linguae et oris, at certe pectoris et cordis regnaturam. ص 345، طبعة لبنتز).

ودعا ابنَ رشدٍ في موضعٍ آخرَ بـ«الفيلسوف الشهير في أسرة أرسطو، والرصينِ في تقديره للطبيعيات»[1]، ويَعْزِم على التوفيق بينه وبين ابن سينا كالتوفيق بين أرسطو وأفلاطون[2]، ثم إن القُلْمُرِيين يَعُدُّونه بين الرشديين[3]، ومع ذلك فإن بِيكَ شعَرَ بمؤثِّرَاتٍ أصلح من تلك، ففي كتابٍ وَجَّهَه إلى إرْمُولَا وبَرْبَارُو وأعْرَب عن مُيُوله الجديدة وعن أسفه على المهتدي الجديد[4]، ثم إن بِيكَ المِيرَندوليّ عَرَفَ أن يَبْقَى ضِمْنَ دائرة حكيمة من المذهب الانتخابيّ، فما كان من مبالغات فريق العلماء بالآداب القديمة أوجب عثوره على ما هو صالحٌ في السَّكُلَاسية العربية[5].

ويُمْتَقَع جميعُ ما يَصْدُر عن علماء الأدب القديم من كلام مُفَخَّم ضِدَّ الفلسفة العربية بجانب حَمَاسيات لويس فِيفِس، فهذا الكلامُ الذي هو أجْفَى ما عانَى ابنُ رشد لا يَشْغَل أقلَّ من أربع صَفَحَاتٍ من القطع الكامل في رسالة[6] «العلل التي تقضي على الفنون[7]» ثم يورد

---

(1) L1 Adv, astro. (أنطونيو، جزء2، ص 395، طبعة باير).
(2) De hominis dign، ص 324، وما بعدها، الدفاع، ص 118.
(3) 1، 2 من كتاب النفس، فصل1، مسألة 7، مادة1.

(4) Hac proxima tua ad me epistola, in qua dum barbaros hos philosophos insectaris, quos dicis haberi vulgo sordidos, rudes, uncultos, quos nec vixisse viventes, nedum extincti vivant, et si nunc vivant, vivere in poenam et contumeliam, ita Hercules sum commotus, ita me puduit piguitque studiorum meorum (jam enim sexennium apud illos versor), ut nihil minus me fecisse velim quam in tam nihili facienda re tam laboriose contendisse. Perdiderim ego, inquam, apud Thomam, Joannem Scotum, apud Albertum, apud Averrooem, meliores annos, tantas vigilias, quibus potuerim in bonis litteris fortasse non nihil. Comgitabam mecum ut me consolarer, si qui ex illis nunc reviviscant, habitrui ne quidqum sint, quo suam causam, argumentosi aliqui homines ratione aliquat tueantur.

Hermolaus le reprent de ce que, apres avior gouste tant delices contenues es lengues grecque et latine, il s'est * alle souiller en la lecture des docteurz barbares, lesquelz, jacoit qi' ilz soinet este en grande réputation de plusieurz estantz en authorité... et combien qu' ilz soient extimez par grandtz et petitz ignorantz les bones lettres, ne le sont pas par les scavantz, les jugeant indignes de vivre ni marcher sur terre, met du ranc de ,ceux-lia Averrois, Aubert le Grand, saint Thomas et d'autres infiniz, (Bonnivard, Advis et devis des lengues في مكتبة مدرسة المراسيم، السلسلة الثانية، جزء5، ص 357.

** Inter Opp Politiani، باريس 1512، جزء1، ص 55، و in Bernays, Florilegium renascentis latinitatis بون 1849، ص 17.

(5) Quamvis, dicam quod sentio, movent mihi stomachum grammatistae quidam, qui quum duas tenuerint vocbulorum origines, ita se osientant, ita se veditant, ita cirumferunt jactabundi, ut prae se ipsis pro nihilo habendos philosopos arbitrentur, Nolumus, inquiunt, hasce vestras philosophias et quid mirum ? nec Falernum canes ومع ذلك فإنه يظهر أن هذا الدفاع أرضى الرشديين قليلًا وكان سببًا في انتصار أنصار اليونانية الذين دعوه بالدفاع عن الشيت والتوتون، وقد كتب إرمولا يقول:

Ab amicis quos habeo Patavii certior factus sum aplogiam tuam quae Scytharum et Teutonum est inscribi .coepta, quasi Typhonis et Eumenidum laudatio, molestissimam accidisse majori eorum parti quos defendis

* المصدر نفسه، برناي Floril، ص 23.
(6) معارضة، جزء1، ص410، وما بعدها.
= (7) Nomen est Commentatoris nactus homo qui in Aristotele enarrando nihil minus explicat, quam eum

فِيفسُ عبارةً تُسَوِّغ تهكُّماتِه كثيرًا، ولكنْ مع العلم بأن مسؤوليتها تَقَع على المترجم العربيّ أكثر مما على الشارح[1]، ويُزَوِّده فريق الهِرْكُوليين[2] التَّعِس بفرْصة من الأفاكيه لا يَنْضُب لها مَعِين[3]، وقد أحببت أن أُدْرِج هذا الكلام المُفَخَّم الطويل لأدلَّ على لهجة الغضب التي يَصْرُخ بها أعداء ابن رشد، وليس سِلْيُوس رُودِجينوسُ أقلَّ شِدَّةً من ذلك مطلقًا[4]، وعُرِض برنارد نافَاجِيرُو، الذي كان مُكِبًّا على الآداب الجميلة وكان يقيم وَزْنًا لابن رشد، مِثْلَ ظاهرةٍ أدبية في عصره[5].

=

ipsum quem suscepit declarandum. Sed nec potuisset explicare, etiamsi divion fuisset ingenio, quum esset humano, et quidem infra mediocritatent. Nam quid tandem adferebat quo in Aristotele enarrando posset esse probe instructus? Non conginitionem veteris memoriae, non scientiam placitorum priscae disciplinae et intelligentiam sectarum , quibus Aristoteles passim scatet. Itaque videas eum pessime philosophos omnes antiquos citare, ut qui nuilum unquam legerit, ignarus graecitatis ac latinitates. Pro polo Ptolomaeum ponit, pro Protagora Phythagoram, pro Cratylo Democritum, libros Platonis titulis ridiculis inscribit, et ita de iis loquitur, ut vel caeco perspicuum sit litteram eum in illis legisse nullam. At quam confidenter audet pronuntiare hoc aut illud ab eis dici, et quod impudentius est, non dici , quum solos viderit Alexandrum. Themistium et Nicolaum Damascenum, et hos, ut apparet, versos in arabicum perversissime ac corruptissime I Citat enim eos nonnunquam , et contradicit. et cum eis rixatur, ut nec ipse quidem qui scripsit intelligat Aristotelem vero quomodo legit? non in sua origine purum et integrum, non in lacunam latinam non in lacunam latinam derivatum (non enim potuit linguarum expers)< sed de lation in arabicum transvasatum, in qua transfusione ex Graecis bonis facta sunt latina non bona, ex latinis vero malis arabica pessima.

* ولا ضرورة إلى ملاحظة الخطأ العظيم الذي يأتيه فيفس هنا، وقد استنسخه هويه، De claris interpret، ص 126 (باريس 1680).

(1) قال صارخًا:

Aristoteles si revivisceret, intelligeret haec aut posset vel conjecturis castigare? O homines valentissimis stomachis qui haec ddevorare potuerunt et concoquere, et in haec tam ab Aristotelis sententia ac mente abhorrentia auscultare quae Aven Rois commentator comminiscitur: favete linguis viro tanti nominis et alteri Aristoteli.

(2) انظر إلى الصفحة 66 - 67 السابقة.

(3) Haec sunt tua, an Herculeorum, ut tu vocas? tua sunt, qui adeo est ipius ut impietates inserere vel tuo vel alieno nomine semper gaudeas Atqui hic est Aben Rois quem aliquorum dementia Aristoteli parem fecit, superiorem divo Thomae Rogo te, Aben Rois, quid habebas quo caperes hominum mentes, seu verius dementares? Ceperunt nonnulli multos sermonis gratia et orationis lenocinio, te hinil est horriduis, incultius, obscoenius, infantius, Alii tenuerunt quosdam congitione veteris memoriae, tu nec quo temporee vixeris, nec qua aetate natus sis novisti, non magis praeteritorum consultus, quam in silvis et solitudine natus et educatus I Admiratione atque omnium laude digni sunt habiti qui praecepta trdiiderunt bene vivendi: te nihil est sceleratius aut irreligiosius: implus fiat necesse est et .... quisquis tuis monimentis vehementer sit deditus, Jam dic lpse, quare quibusdam placuisti? Audio, teneo, non tua culpa est, sed nostra: non tu adferebas quo placeres, sed nos adferebamus quo non displiceres. Suavia erant obscuris obscura, inanibus inania, et quibusdam pulchra sunt visa quae non ipsi intelligerent. Multi te non legerant, alienum judicuim sunt secuti, aliquibus propter impietates fuisti gratus: nam et Aben Rois doctrina et Metaphysica Aviscennae, denique omnia illa arabica videntur mihi resipere deliramenta Alcorani et blasphemas Mahumetis insanias: nihil fieri potest illis indoctuis, insulsus frigidius..

(4) Antiquoe lect، 1: 3، فصل 2، ص 110.

(5) Praef, Junt 1855، ص 20.

وأخيرًا استمسك ذوو الاعتدال، الذين ذُعِرُوا من جُرْأة المشائية الإيطالية، بمبادئ النصرانية المُصْلَحَة، فظهر مِلَنْغتُن ونقولا تُورل كثيري النفور من التعليم الرُّشْديّ[1]، وكان إرَاسْم قانعًا بعُمْقَ إلحاد ابن رشد، وكتب الأستاذ بجامعة نابل، أنبرُوجيُولِيُون، يقول له إنه أَتَمَّ طبعَ كتابه ضِدَّ الشارح في ستة وأربعين جزءًا[2]، ويُهَنِّئُه إرَاسْم[3]، وأظهر علماء الأدب القديم في عصر النهضة تَهَوُّرًا أقلَّ مما أظهر المَشَّائون السِّكُلَاسيون، وإذَا عَدَوْت بعض العادات الوثنية غير الضارَّة وجدتَهم قد ظَلُّوا مرتبطين، من حيث الأساسُ، في الأُرْثُدُكسية الكاثوليكية أو البرُوتستانية، وسابقًا عَرَضَ بِتْرَارْكُ مثالًا طريفًا على هذا المَيْلَ المضاعف.

واتخذت جمعيةُ يسوعَ البارعةُ عَيْنَ الوضع تجاه ابن رشد، ويأمر «عقلُ التلاميذ»[4] أساتذة الفلسفة بأن يَذْكُروا بلا انقطاعٍ مرسومَ مجمعِ لاترانَ الدينيِّ، وبألَّا يستشهدوا إلَّا مع الاحتراز بمفسري أرسطو الذين لا خَلَاقَ لهم من النصرانية، وبأن يَحُولوا دون تَعَلُّق التلاميذ بهم، وبألَّا يوضحوا استطرادات ابن رشد على الخصوص، وبألَّا يُثْنُوا على شروحه إذا ما انْتَهَوْا إلى ذكرها، وبأن يقولوا، إذا أَمْكَن، إنه اقتبس من الآخرين كلَّ ما قال من صالحٍ[5]، وبأن يرتبطوا في أرسطو ارتباطًا مطلقًا، وبأن يَحْمِلُوا على الإسكندريين والرشديين على السواء، وبأن يُمَارُوا في كلِّ ما للإسكندر وابن رشد من اعتبار، ومَنْ على الباطل، ومن على الحَقِّ، كان هذا يَشْغَلُ بال مؤلفي «العقل» قليلًا، فالعلمُ والفلسفةُ وسيلةٌ، ومن لم يَخْدُم أغراضَ المجتمع لم يُمْدَحْ قطُّ، وهو إذا ما كان على حَقٍّ في حياته ذات مرة وَقَعَ هذا عن انتحالٍ لآثار الغَيْرِ لا رَيْبَ.

14 - مواصلةُ التعليم الرشديّ في بادُو، زَبَارِلا

يالعناد الرُّتين العجيب! يَدُوم قَرْنًا آخرَ ذلك التعليمُ الجافي المبهمُ الذي صار أُضحوكَةً، وذلك في وسط إيطاليا المُتَثَقِّفَة وبين الروح العصرية المنتصرة، أَجَلْ، عاد ابنُ رشدٍ لا يَسُود

(1) راجع بروكر، جزء4، ص 308.

(2) Epist 19من يونيه 1518، معارضة، جزء3، قسم 1، مجموعة 324 (ليدن، 1703)، ظهر الكتاب في البندقية سنة 1517 مقدمًا إلى ليون العاشر بعنوان: Ambrosii Leonis Nolani, Marini filii, Castigationum adversus Averroem, ad .Augustissimum Leonem X, Pont, Max plures libri

(3) قال: ... Utiram prodisset ingens ilud opus adversus Averroem impium

* 15 Epist، من أكتوبر 1519، المصدر نفسه، مجموعة 507.

(4) ص 68، وما بعدها، (روما 1616).

(5) Si quid boni ex ipso proferendum sit, sine laude proferat, et si fieri potest, id eum aliunde sumpsisse demonstret.

سُؤدُدًا حاجبًا غيرَه، أَجَلْ، إن وسائلَ التفسير القديم تتسعُ، ويوازِنُ نفوذُ اليونان نفوذَ العرب مقدار فمقدارًا[1]، بَيْدَ أن المسائل الرشدية تَهُزُّ المدرسة وتُتَّخَذُ برنامجًا للتعليم دائمًا، وواصل جاك زَبَارِلَّا تقاليدَ كرسيِّ بادُو التدريسيِّ فيما بين سنة 1564 وسنة 1589[2]، ويَكُون ابنُ رشدٍ دليلًا له في شرح العبارات الصعبة، وهو يَذْكُره مع الإجلال البالغ وإن كان يقترب في نِقَاطٍ كثيرة من الإسكندريين، وهو يشترك مع ابن رشد وأشِيلِّيني في ذهابهما ضِدَّ ابن سينا إلى أن وجوبَ وجودٍ مطلقٍ لا يُثْبِتُ وجودَ الله، وأن السماء يُمْكِنُ أن تكون هذا السببَ الأول، وأنه لا يُوجَدُ دليلٌ قاطعٌ على وجود اللهِ غيرُ حركة السماء، ومع ذلك فإن زَبَارِلَا يَميزُ في الغالب بين رأي ابن رشدٍ ورأي أتباعه، فهو، في علم النفسي، يناهض نظرياتِ الرشديين بشدة، فمن قوله إن العقل، وَفْقَ نظام وَحدة النفوس، لا يَكُون في الإنسان إلا كالرُّبَّان في السفينة، والواقعُ أن العقل هو شكلُ الإنسان المُصَوِّر، وبذا يكون الإنسان إنسانًا، ولِذَا فإن العقل يَكْثُر على حسب عدد الأجسام، ومع ذلك فإن زَبَارِلَّا يوافقُ مذهبَ القديس توما الأكوينيِّ فيذهبُ إلى وجود فرقٍ بين فَعَّالية النفس الخاصة والعقلِ الفَعَّال الذي هو معقولٌ أو هو اللهُ المعدودُ مُحَرِّكًا عامًّا، وإذَا ما اعْتُرِض على زَبَارِلَّا بأنه يَهْدِم بهذا ذاتيةَ العقل التي كان يريد تقريرَها ضِدَّ الرشديين أجاب بتفريقه بين الإدراك الابتدائيِّ والإدراك اللاحق، وذلك أنه لا ذاتيةَ في الأول، وأن الإشراق يأتي من الخارج، وعلى العكس يَكُون العقل بعد ذلك مستفادًا خاصًّا بنا، وذلك بمعنى أن الله، إذ يَنْشُر نورَه بلا انقطاع، يَكُون دائمًا تحت تصرفنا حينما نريد أن نُفَكِّر، ويكون العقلُ الفرديُّ هالكًا بطبيعته، ولكنه يصير كاملًا بالإشراق الإلهيِّ ويَغْدُو خالدًا[3]، ومع ذلك فإن فكرة زَبَارِلَّا تَظْهَرُ مُقَرَّرَةً قليلًا من هذه النُّقطة، وذلك أنه، كجميع مدرسة بادُو، يَرَى أن خلود النفس ليس في مبادئ علم النفس المَشَّائيِّ، وهو إسكندريٌّ في هذا، وهذا هو حُكْم معاصريه فيه[4]، وفي النصف الثاني من القرنِ السادسَ عشرَ ذَكَّرَت منازعاتُ زَبَارِلَّا وفرنسوا

---

(1) Inde coeptum aliud mixtionis in philosophando genus, uti Aven Rois et Latinis graecos interpretes admiscerent، باتريزي، النقاش المشائي، 1: 12، ص 106.

(2) ما أكثر دهشي حينما سرت في شارع ببادو وصعدت في درج كنيسة القديسة كترينة دل توريزن المؤلفة من رجام فقرأت على أحد هذه الحجارة المكسورة بانحراف كلمة: Jacobo.. Zabarel.. civilis elec.. probitat.. et Ludo، نعلم من تومازيني (1، ص 139)، بالحقيقة، أن زبارلا دفن في هذه الكنيسة، ولكن من غير أن يستطيع الوقوف على كتابته Nulta, quod, observare potuerim, memoria clarus.

(3) ربتر Gesch, der neuern, Phil، قسم1، ص 718 وما بعدها.

(4) Deterrimam alexandreorum sententiam professus بروكر، جزء4، ص 202.

بكُولُومِيني بمآثر أشِيلِّيني وبنْبُونا، وقد كان بكَولُوميني تلميذًا لزِيمَارَا، وكان يَلُوح اقترابهُ من الرشديين الذين كان يرتبط فيهم، فضلًا عن ذلك، بأشكال تعليمه السُّكُلَاسية[1].

ويقترب الأستاذُ الكثير الشهرة في زمنه، فدريك بَنْدَازْيو المَنْتُوِيُّ[2]، من منهاج زَبَارِلَّا، وتشتمل مكتبة جامعة بادُو[3] على متنٍ خطيٍّ لدروسه، التي بَقِيَتْ غيرَ مطبوعة، حَوْل كتاب النفس، وقليلٌ من الكُتُب ما هو صالحٌ صلاحَ هذا الكتاب لفَهْم مِنْهَاج التعليم وعاداته في بادُو، وفي هذا الكتاب نُوقِشَ مَتْنُ ابن رشدٍ سطرً فسطرًا، وذلك بعنايةٍ بالغةِ الدقة، ولكن بَنْدَازِيُو، وإن كان يَتَّخِذُ ابن رشدٍ أساسًا لدروسه، يرتبط بمذهب الإسكندر في مسألة العقل، وذلك أن العقل يتعدَّدُ بعدد الأفراد، أَجَلْ، إن أصول العقل مشتركةٌ بين كثيرين، بَيْدَ أن الصور التي لابُد منها لكلِّ عملٍ عقليّ كثيرةٌ ومتنوعة[4]، والعقلُ واحدٌ قديم من حيث وجودُه في النوع البشريِّ الذي يشترك فيه منذ الأزل، وهو زائلٌ من حيث وجودُه في هذا الفرد أو ذاك[5]، ويُؤَكِّدُ الرشديون أن الكثرة العددية ليست إلَّا من حيث الهَيُولي، وأن العقل إذا كان متعدِّدًا كان هَيُولِيًّا، ويُجِيبُ بَنْدَازِيُو بأن العقل يتصل بالجسم على وجهٍ ما، ولكنه لا يَتْبَع الجسم، «وذلك كالحذاء الذي يُصْنَع ليلائم الرِّجْل، ولكن مع عدم اتباعٍ للرِجْل!».

ولِذَا فإن بَنْدازيو إسكندريٌّ بَيِّنٌ، وكذلك عُدَّ تلميذاه، كرِيمُونيني ولويس ألْبِرْتي[6]، بين أحزم المدافعين عن مذهب الإسكندر، وعلى العموم يُعَدُّ من هذا الطراز جميعُ أستاذة بادو في القرنِ السادسَ عشر الذين بَقِيَ اسمُهم في تاريخ الفلسفة، وذلك أنهم، مع اتخاذهم ابنَ رشدٍ مَتْنًا لدروسهم، يَحْكُمون على وَحدة العقل، ومن الصعبِ ذِكْرُ أستاذٍ واحدٍ استطاع، بعد مَجْمع لاتْرَانَ الدينيِّ، أن يدافع بصراحةٍ عن رأي الشارح في هذه النقطة، ومع ذلك فإنه، مع ما يُرَى من إصرار بَنْدازُو على تفنيد الرشديين بلا انقطاع، لابُدَّ من أن يُفْتَرَضَ كَوْنُ هذا

(1) بروكر، جزء6، ص 208، تومازيني، جزء1، ص 208 وما بعدها.

(2) نودانا، ص 105، بيل، مادة Crem، تعليق Y، بروكر، جزء4، ص 211، جزء 6، ص 718، فاكسيولاتي، قسم 3، ص 275، 280.

(3) رقم 1264، يوجد لدى نسخة عن درسين من أهم الدروس، وأنا مدين بهذا الفضل للعلامة مسيو صموئيل لوزاتو، وكذلك تشتمل مكتبة بلدية رافين على مخطوط عن هذه الدروس Sc. 141, or 5. X، انظر إلى الذيل 9.

(4) In aeternitate in specie omnes conveniunt.. Hinc fit ut congnitio quae est in hoc intellectu non sit una numero, sed solum una specie, quia pendet a phantasmatibus quae sunt plura numero, Lect 33.

(5) Sunt aeterna, qui intellectus unicus est, in quo semper conservatur eaedem cognitio: nam omnes homines conveniunt in cognitione primorum principiorum, omnes conveniunt ut homines sint aeterni.. Erit autem facta et corruptibilis haec congitio, respectu hujus vel illus particularis< Lect33.

(6) يعد نوده بين تلاميذ بندازيو زبارلا وفرتونيو ليستو، بيد أن زبارلا كان يعلم في ذات الوقت الذي كان يعلم فيه بندازيو، وكان ليستو من الصبا بحيث لا يمكن أن يتلقى منه.

الرأي لا يزال ذا أنصارٍ في بادُو. وما هو واقعٌ من نُدْرَة المُتُون الرُّشدية الصرفة إلى الغاية يَجْعَلُني أُعَلِّق بعض الأهمية على شرحٍ غيرِ مطبوع لأجزاء ما بعد الطبيعة الاثنى عشر التي تشتمل عليها مكتبة سان أنطوان بيادو (رقم 424)، وقد عُزِي هذا الشرحُ إلى أستاذٍ مجهولٍ من قُلُمْرِية، ويَرَى واضعُ جدول المخطوطات بسان أنطوان، الأبُ مِنْشِيُوتي، أن من الممكن أن يكون ذلك هو أُنُوفِرْيُو القُلُمْرِيّ الذي أرسل إليه غايْتَانُو التِّيَانيُّ كتابَه في النَّفْس[1]، ولا يُسَلَّم بهذا الافتراض ما دام الأستاذ القُلُمْرِيُّ يَذْكُر أشِيلِّيني ونِيُفوسَ وزِيمَارَا وسِيمُون بُرْسيوس الذين ظهروا بعد غايْتَانُو بقرن، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإن المذهب المعروضَ في هذا الكتاب هو أَصفَى ما يكون رُشْدِيةً، وذلك أن المادة الأولى واحدةٌ ومشتركة[2]، وأن العلة الأولى تؤثِّر وُجُوبًا ما استطاعتْ، فلا يُمْكِنُها أن تَمْتَنِعَ عن نَقْل فَضْلها[3]، وأنه لا شيءَ لا يَخْرج من العَدَم المطلق، وقد قَلَبَ القديس توما وفلاسفةُ اللاتين جميعَ مبادئ الفلسفة الأرسطوطاليسية بافتراضهم أن العقل متعدد وأنه أبديٌّ في تَعَدُّده[4]، والعقلُ أبديٌّ لأنه وحيدٌ غيرُ رهينٍ بقابلية الفرد للفساد، ويُسَلَّمُ بجميع نظرية ابن رشد عن السماء على أنها الكلمةُ الأخيرة في علم تكوين الكائنات[5].

وكان يُشْرَح ابنُ رشد في بُلُوني ونابل وفِرَّار كما في بادُو، ونَشَرَ نِقُولا رِيسُّوس ونقولا فِيتِيغُوزِّي وفرَنْسِسْكُوس لُنْغُوس وسِيْيُون فلُورِلُّوس[6] دروسَهم عن كتاب «جوهر الأجرام السماوية»، وعن الأقسام الأخرى في أثر الشارح الأكبر، وتحتوي مكتباتُ شمال إيطاليا

(1) Catal dei Codd man di S Ant, di Pad، ص 112.

(2) Quod materia sit una numero probatur. Iillud est unum numero quod non habet pluralitatem formarum individualium. Ergo... Quod materia communis sit pluribus probatur. Illud dicitur commune pluribus quod non habet formam unam numero per quam illud sit unum numero. Sed materia non habett unam formam (lect14).

(3) Probavimus secundum philosophos quod prima causa necessario movet et operatur. et non potest non operari. quia bonum non potest quin communicet aliis bonitatem suam, Inusuper movet necessario et quantum potest Lect 31

(4) Latini ex hoc tectu Nil prohibet intellectum sepaarari, duo colligunt, primum quod animus noster est immortalis, secundum colligit Beatus Docto quod intellectus non est unus, sicuti sensit Averroes. Opinio Latinorum, secundum placita philosophorum et maxime Aristotelis nullo modo sustineri potest, quum praecipus fundamenta philosophiae evertit: Ex non ente simpliciter nihil fit, et aliud ita famosum: Ex nihilo nihil fit. Dico igitur quod unus est intellectus et immortalis. Si remanet, igitur praecedit, nam aeternum ey una parte ex alia quoque aeternum est (Lect14).

(5) Lect 39

(6) أنطونيو Bibl, hisp, vet، جزء2، ص 397، 399 (طبعة باير).

على عدد كبير من المخطوطات الخاصة بهذا الحقل من الدراسات، وذلك لأن هذه الدفاتر المدرسية كانت لا تُطْبَع في الغالب وكانت تُسَلَّم نُسَخًا، حتى إن بَلَاط الإسْتِ لم يَكُنْ غريبًا عن الفلسفة الرشدية، ومن ذلك أن أنطوان مُنْتِكَا تِينُو الذي عَيَّنه الدوك أَلْفُنْشُ الثاني فيلسوفًا له، براتب شهريٍّ قدرُه أربعٌ وعشرون ليرةً، شَرَح أرسطو وابنَ رشد[1]، وتشتمل مكتبة فِرَّار (رقم 304) على مخطوط الشروح غيرِ المطبوعة عن ابن رشد بخطِّ يد مؤلفها الطبيب أنطوان برَازَفُولا، والمُهْدَاةِ إلى هِرْكُول الإسْتِيِّ ورِينِه الفرنسيِّ[2]، وتُعَدُّ الأشعارُ الموضوعةُ على رأس الكتاب، لمَدْحِ المؤلف على حسب العادة الإيطالية، تكريمًا لابن رشد[3].

وكذلك يَبْدُو بَرَازَافُولَا في شرحه على «جوهر الأجرام السماوية» المُهْدَي إلى دُوك مَنْتُو، فرَنْسوَا الغُنْزَاغي، واسعَ الاطلاع على مؤلَّفَات المدرسة الرُّشدية التي يَقْسِمُها إلى قديمة وحديثة[4]، وهو يناقش بالتناوب، حَوْل كلِّ جُمْلةٍ لابن رشد، آراءَ بِيكَنْتروب ويوحنا الجَنْدُونيِّ وغرِيغْوَار الريمينِّي وترُنْبتًا وغايْتَانُو التِّيَانيِّ ونِيفُوس وزيمارا، إلخ، ومع ذلك فإن برَازَافُولا يَظْهَرُ ذا مَيْلٍ إلى مذهب الإسكندر، مُوَجِّهًا، في بعض الأحيان، أشدَّ اللوم إلى آراء ابن رشد، وقد يَكُون أَدْعَى إلى الحيرة أن يُعْلَم أن تاسَّ كان إسكندريًّا، وأن أحد الكتب التي طلب إلى أَلْدَ الشابِّ أن يُرْسِلَها إليه في سجنه هو شرحُ الإسكندر على «ما بعد الطبيعة»[5].

15 - سِزَاركريمُونِيني، انهيارُ المشائية في إيطاليا

كان خَلَفُ زَبَارِلَّا بيادو، سِزار كريمُونِيني، آخرَ ممثلٍ للسِّكُلَاسية الرشدية، وكان تقديرُ مؤرخي الفلسفة لكرِيمُونيني حتى الآن ناقصًا جِدًّا، فهو لم يُحْكَم في أمره إلَّا بكتبه المطبوعة التي ليست سوى مباحثَ قليلةِ الأهمية لا يُمْكِنُ أن يُدْرَك بها، على أيِّ وجهٍ، ما انتهى إليه

(1) بروكر، جزء4، ص 231.

(2) مقدمة الفهرس وحدها هي التي لم تطبع.

(3) Corduba Tergemino felix jam sacret honorem

Commentatoris dogmata docta sui, etc.

(4) Nec nostra aetate nec apud antiquos averroistas hoc unquam dubitatum fuit... Animadvertendum est duas esse in hac materia opiniones extremas, unam quam antiquiores averroistae, Johannes Scotus, sanctus Thomas (quamvis ambiguus videatur), Johannes Bachonus et Herveus sequuntur, aliam vero praecedenti oppositam recentiores averroistae sequuntur (Ms Ferr).

وهنا يعد برازافولا ابن رشد، كما يعده بتريزي، أبًا لجميع السكلاسيين، ويجعل الرشدي مرادفًا للفيلسوف (انظر إلى الصفحة 378 السابقة)، وبهذا المعنى يضع القديس توما بين الرشديين.

(5) انظر إلى محاورة Il Cattaneo, ovvro delle conclusioni، معارضة، جزء7، (بيزه، 1822)، وإلى الرسائل غير المطبوعة، 292.

من شهرة عظيمة، وليس كريمُونيني غيرَ أستاذ، ومحاضراتُه هي فلسفتُه الحقيقية، وكذلك بَيْنَا كانت كتبه المطبوعة تُبَاعُ بثَمَنٍ بَخْسٍ[1] كانت تحريراتُ دروسه تنتشر في جميع إيطاليا، حتى وراء الجبال، ومن المعلوم أن التلاميذَ يُفَضِّلُون، في الغالب، ما تَلَقَّوْا من فَم أساتذتهم من دفاترَ على المُتُون المطبوعة، ثم بما أن كريمُونيني كان محكومًا عليه، كفيكُو وكجميع الإيطاليين الممتازين في القرن السابعَ عشرَ والقرنِ الثامنَ عشرَ، على العَيْشَ من بَيَانه فإنه كان يَجِدُ ناشرين لقصائده وقِطَعِه الظَّرْفِية[2]، لا لكُتُبه الرَّصينة، وفي الدفاتر، أكثرَ مما في المصادر المطبوعة، ما يجب أن تُدْرَس مدرسةُ بادُو على العموم، وعَمَلٌ مِثْلُ هذا سهلٌ من أَجْلِ كريمُونيني، وذلك لأن نُسَخَ محاضراته لا تُحْصَى في شمال إيطاليا، ولا مراءَ في أن أكملَ نسخةٍ هي نسخةُ مكتبة مار مَرْقُس بالبندقية، وتتألف هذه النسخة من اثنين وعشرين مجلَّدًا كبيرًا[3] مخطوطًا بيدٍ واحدة ومشتملًا، سنةً فسَنَةً، على دروس كريمُونيني في جميع أقسام الفلسفة المَشَّائية[4]، وقد صدرت هذه المخطوطات عن مجلس العشرة الذي قَدَّم كريمُونيني إليه كتبَه بالحقيقة كما يَدُلُّ عليه خطابٌ وُجِدَ في جبل كَسِّين فتتكلَّم عنه بعد قليل[5].

والحقُّ أن كريمُونيني ليس إسكندريًّا ولا رشديًّا، وإن كان يَميلُ إلى مذهب الإسكندر كثيرًا[6]، وكان ابنُ رشد ويوحنا الجندونيُّ أكثرَ من ينتفع بهم من المؤلفين، وكانا يُزَوِّدانه بنَصِّ دروسه، وكان المعلِّمون الآخرون في المدرسة الرُّشدية يَظْهَرُون بالتناوب في هذه المناقشات المُمِلَّة، ويَلُوح أن كريمُونيني كان يلتزم طريقًا وسطًا بينهم بمنهاجٍ انتخابيّ سطحيّ، وكان يَلْزَم رأيًا عُزِي إلى ابن رشدٍ في ذلك الحين على العموم، أي أن وجود الله لا يُمْكنُ أن يُثْبَت بغير اعتبار حركة السماء الطبيعية، وهو يَذْهَبُ بلا قيدٍ مهمّ إلى نظريات ابن رشد عن العقول السماوية والعناية الإلهية[7]، فالسماءُ تديرُ جميعَ الأمور الأرضية، ويُوجَدُ فاعلٌ عامٌّ يَعُود إليه

Illud nobis mirandum, quod elaborata ipsius opera typis excusa in officinis hactenus evilescunt, scripta vero peripati more discipulis ab ipso deambulante dictata sic excellunt, ut nihil ad arcana philosophiae detegenda perfectius ac suavius desiderari possit (Imperialis apud Bruckerum جزء4، ص 226 classis VI, codd, 176- 798 (3) .Clroinda e Valliero, Il ritorno di Domone (2)

(1)

(4) تعرضها القائمة على أنها مكتوبة بخط مؤلفها، غير أن هذا الرأي يصعب تأييده كما يظهر، وذلك لوجود رسائل فيها مؤلفة عن كريمونيني من قبل تلاميذه.

(5) يوجد بين يدي مقتطفات مبسوطة من هذه الدروس، بيد أنه يجب أن أقتصر هنا على ما يتصل بالرشدية مباشرة.

(6) ذكر فورتوينو ليستو أنه حاول تفنيد رأي الإسكندر حول الخلود فهدده كريمونيني ولويس ألبرتي بالرد عليه (بيل، مادة كريمونيني، تعليق5).

(7) ليست رسالة العقول (مخطوط مارمرقس، صنف 6، رقم 184)، غير عرض طويل لهذه النظرية وما أدخله الرشديون إليها من دقائق لا تصدق.

جميعُ عمل الكَوْن[1]، ولا يُدْرِك اللهُ شيئًا خارجَ نفسه، وينتقد كريمُونيني علم النفس الرشديَّ بشدةٍ بالغة، ويَبْدُو له مبدأ ابن رشد القائلُ «يجب أن يكون القابل مجردًا من طبيعة المقبول» مختلًا من كلِّ جهة[2]، وكذلك فإنه لا يَقْبَل نظريةَ وَحدة العقل[3]، وإن كان يعترف بأنه يجب أن يُبْحَثَ عن الخلود في النوع لا في الفرد، والعقلُ الفعال هو الله نفسُه كما قَصَدَ الإسكندر، وهو منفصلٌ عن قُوَى النفس بالضرورة بسيطٌ قائمٌ بذاته، وذلك لأن العقل الفعال يُحَرِّك جميع المعقولات، ويكون المعقول بسيطًا منفصلًا قائمًا بنفسه[4]، وكأن الكلَّ مملوءٌ روحًا، واللهُ حياةُ الكون نفسُها نافذٌ في الكلِّ بصفته عقلًا فَعَّالًا[5]، والعالَمُ ضِمْنَ تَحَوُّلٍ خالد، وهو غيرُ كائن، فيُولَدُ ويَمُوت بلا انقطاع[6].

وهذه هي المذاهب التي عَلَّمها كريمُونيني مدةَ سبعَ عشرة سنة في فِرَّارَ ومدةَ أربعين سنةً في بادُو، ولم تُعْوِزْها الجُرْأة كما تَرَى، ولم يُوَفَّقْ كريمُونيني لتَجَنُّبِ الاضطهاد[7] إلا بفضل احتجاجات الأُرْثُدكسية، وتُعَدُّ مقدمتُه لكتاب النفس[8]، من هذه الناحية، من طرائف البراعة، وقد قال لسامعيه: «اعْلَمُوا أنني لا أَزْعم أنني أُعَلِّمُكم ما يجب أن تعتقدوا حَوْل النفس، بل أُعَلِّمُكم ما قال أرسطو، والواقعُ أنه أُجِيبَ هناك بإسهابٍ عن جميع ما في أرسطو من مخالفة للدين وعن علماء اللاهوت وعن القديس توما، وإن أُنَبِّهُكم إلى ذلك مرةً عن كلِّ مرة، وذلك لكي تَعْرِفوا أين تَجِدُون الجوابَ إذا ما سَمِعْتُم في محاضرتي بعضَ القضايا المخالفة للإيمان الصحيح، وذلك أكون قد قَصَّرْت في جميع واجباتي إذا ما أَخفيتُ شيئًا من رأي أرسطو»، وهو يُبَادِرُ في كلِّ قضيةٍ خَطِرَة إلى إضافته قولَه: «لاحظوا جيدًا أنني لا أقول لكم رأيَ الخاصَّ، فرأيي لا يُمْكِنُ أن يَكُون غيرَ رأي أُمِّنَا الكنيسة المقدسة، وإنما أقول رأيَ أرسطو[9]»، وكانت

(1) تراكتاتوس، عمل الكون (مخطوط مار مرقس، رقم 176، 182).

(2) In Librum De anima مخطوط مار مرقس، رقم 191.

(3) Tract. De intelligentiis, sub fin, In librum III De anima

(4) In librum III De nnima, lect 74, co 192، تجب مقارنة المجموعة 70 التي تعرض محاضرة كريمونيني في سنة 1592، أي تعليمه الأول.

(5) المصدر نفسه، درس 79، 80.

(6) تشتمل مكتبة جبل كاسين على الدرس الافتتاحي الذي قام به كريمونيني حول هذا المتن سنة 1591، Mundus nunquam est: nascitur semper et moritur.

(7) بيل، مادة كريمونيني، «كان كريمونيني يكتم ما في ضميره بمهارة Nihil habebat pietatis et tamen pius haberi volebat.

(8) مخطوط مار مرقس، رقم 190، 191، 192، انظر إلى الذيل العاشر.

(9) In hoc diximus non quod nos sentimus de anima et de intellectu agente, sentimus enim id quod sentit nostra mater Ecclesia, sed diximus in quod videtur sensisse Aristoteles. (Cod, 192 init), Quae philosophi dicta, ut saepe diximus, non sunt retineda, quia de anima illud est rentiendum non quod sentit Aristoteles, sed quod sentit veritas christiana.

المصدر نفسه، درس 79، Sub fin.

كلُّ ذريعة يَمَسَّكُ بها فلاسفةُ ذلك الزمن لمحاولة انتحال بعض الاستقلال هو أن يَعْرِضُوا المذاهبَ المُعَرَّضة للخطر تحت اسم الآخرين مع ذَمِّها، حتى مع تفنيدها، ولكن مع الانتباه إلى جعل التفنيد ضعيفًا دالًّا، بما فيه الكفاية، على فكرة المتكلم الخاصَّة، ويُسْتَدَلُّ من خِطَابٍ مُمْتِعٍ وجدتُه في مكتبة جبل كاسِّين أن هذه الوسيلة لا تَكْفِي لإخفَاء كرِيمُونيني، ففي اليوم الثالث من يوليه 1619 كتب قاضي بادُو التفتيشيُّ الأكبرُ يُذَكِّرُه بمرسوم مجمع لاترانَ الدينيِّ الذي يأمر الأساتذة بتفنيد الأضاليل التي يَعْرِضونها تفنيدًا جِدِّيًا، ويَطْلُب منه أن يَنْكل مستشهدًا بمثال انقياد بَنْدَازِيو، ويُجِيبُه كريمُونيني عن ذلك بكتابٍ بالغ الحزم جاء فيه أنه لا يتوقَّفَ عليه تغييرُ كتبه التي نالت استحسانَ مجلس السِّنَات، وأنه يَرَى وجوب إعادته راتبَه إذا ما رأى تعليمَه شيئًا آخرَ غيرَ ما يَعْتَقِدُ أنه فكرةُ أرسطو بالحقيقة، ولِذَا فَلْيُفَوَّضْ إلى رجلٍ أن يكتب ضِدَّه كما فُوِّضَ إلى نِيفُوسَ أن يَفَنِّدَ بُنْبُونا، وهو يوافقُ على عدم الجواب، وهذا هو كلُّ ما يستطيع أن يَعِدَ به وكلُّ ما يُنَال من تساهله[1].

وهكذا امتدَّ تعليمُ القرون الوسطى وجدالُه حتى صميم الأزمنة الحديثة وضِمْنَ أسطع مراكز أوربا العلمية، وفي سنة 1628 ما زال غبريالَ نُودِه يَجِدُ الرشدية مسيطرةً على بادُو[2]، ويُمْكِنُ عَدُّ وفاة كرِيمُونيني (1631) حَدًّا لنفوذ هذه الفلسفة، وعادت المَشَّائية السِّكُلاسية لا تَعُدُّ لها بعد الآن نصيرًا لها ذا بال، ولم يُنْقِذْ فُرْتُونيُو لِيستُو (المتوفَّى سنة 1656) بقاياها إلَّا بإدخاله إليها روحَ الفلسفة الحديثة، وكان بِيرِيَغَارْدُ أكثرَ جُرْأَةً فحاول أن يُحِلَّ الطبيعياتِ اليونانيةَ محلَّ المَشَّائية، ويُعَلِّمُ فَرْدِلًا مذهبَ ديكارتَ في بادُو بلا معارضة، وما انْفَكَّت الرشدية تقاوم، منذ ثلاثة قرون، حَمَلاتِ الأفلاطونيةِ وعلماء الأدب القديم وعلماءِ اللاهوت ومجمعِ لاتْرَانَ الدينيِّ ومجمعِ ترَانْتَ الدينيِّ وديوانِ التفتيش، وقد زالت يوم ظهورِ المدرسة الكبرى الرصينة، أي المدرسةِ العلمية، أي المدرسةِ التي فُتِحَتْ بعبقرية لِؤُونَار دُوفَنْسِي، ودامت بأمثال أُكْنِزِيُو وإرِزُّو وجُرْدَانُو بُرونُو وبول سارْبِي وتِلزِيُو وكَنْبَانِلَّا وتَمَّتْ بعبقرية غَلِيلِه[3]، ويُمْكِنُ هذه المدرسة العلميةَ الكبرى، التي هي تاجُ إيطاليا الحقيقيُّ، والتي يحقُّ لها أن تطالب بحِصَّةٍ من مجدٍ بيكن المبالَغِ فيه قليلًا، والتي هي عصريةٌ حقًّا طليقةٌ من غِلْظَة القرون الوسطى تمامًا، أن تَفْرُغَ من الأرسطوطاليسيةِ الهَرِمة، وتَقُوم فلسفة الأزمنةِ الحديثةِ الحقيقيةُ على علم

(1) انظر إلى الذيل 11.

(2) راجع ليبنتز، معارضة، جزء1، ص 73.

(3) هذا ما انتبه إليه مسيو ماميانى الروفيري وأوضحه بلطافة في كتابه الممتع: Del rinnovamento della filosophia antica italiana، قسم1.

الأشياء الوضعيِّ التجريبيّ، ولدى العلم الوضعيِّ وحدَه قوةُ إزالة هذه الأكوام من السَّفْسَطات والمسائل الصبيانية والخالية من المعنى التي كانت السِّكُلَاسية قد كَوَّمتها، والعلمُ الوضعيُّ وحدَه هو الذي استطاع أن يَشْفِي روحَ الإنسان من هذا المرض الغريب، وأن يَرُدُّه إلى الطريق المستقيم، إلى تأمُّل الأشياء كما يَقْضِي الشعورُ الحَيُّ بالحقيقة.

ومع ذلك فإنه يُمْكِن أن يُنْظَرَ إلى تلاشي الرشدية من وجهة نظرٍ أخرى، وذلك لأن هذا الزوال إذا كان نصرًا للمِنْهَاج العقليّ والعلميّ من ناحيةٍ فإنه نصرٌ للأُرْثُدُكسية الدينية من ناحيةٍ أخرى، وذلك لأن الرُّشديةَ البادُوِية، التي لا يُعْتَدُّ بها مِثْلَ فلسفةٍ، ذاتُ فائدة تاريخية حقيقية إذا ما نُظِرَ إليها مِثْلَ وسيلةٍ إلى استقلال الفكر، وليس في هذا التناقض الظاهر ما يُورِث الحَيْرَة، ألم تُرَ اليَنْسِنِيَّةُ، التي هي أَضْيَقُ الفِرَق أُفُقًا مُمَثِّلَةً لعاملِ الحرية على شاكلتها؟ كانت البندقيةُ هُولَنْدَة إيطاليا مَثَلًا، فكانت حريةُ الفكر تُسْتَغَلُّ فيها مِثْلَ فرعٍ تجاريٍّ مُنْتِجٍ جِدًّا، أي أن جميع الكتب البروتستانية كانت تأتي منها[1]، وكانت جمعية مُورُوزيني المؤلَّفُ مُعْظَمُها من أنصار كرِيمُونيني مركزًا للآراء الجريئة[2]، وتُعَدُّ كرامات القديس أنطوان كراماتٍ من كانوا يلائمون مركزًا إلحاديًّا، وهذا هو الزنديقُ أَلَرْدين الذي اهتدى بأُعجوبة كأس ماء، وهذا مُجَدِّفٌ على سِرِّ القربان المقدس اقْتَنَعَ بحِمَار، وهذه هي الأسماكُ التي هي أكثرُ انقيادًا لكلام الله من الملحدين، وكان العوامُّ والرهبان يَسْتَحِبُّون إلقاءَ مِثْلِ هذه الدروس على أبهى العلماء الذين يَنْظُرُون إلى معتقداتهم بازدراءٍ لا يكاد يَخْفَى.

والواقعُ أن هذا الإلحادَ في الآراء الذي كان يَمْنَح شمالَ إيطاليا الشرقيَّ شكلًا بالغَ الابتكار في القرنِ السادسَ عشرَ زال مع المَشَّائية العربية في النصف الأول من القرنِ السابعَ عشرَ، ويَنْطَفِيءُ جميعُ النشاط الثَّقَافِّي في الوقت نفسه، وعادت البندقية، التي غَمَرَت العالَم بكتبها، لا تشتمل على ناشر، وانْتَهَى الأَلِيدُ إلى طَبْع كُتُب الأدعية الدينية تَفَاديًا من الإفلاس! وعلى العموم لم يُشْعَرْ بنتائج رَدِّ الفعل الثَّقَافيّ إلا بعد انقضاء جيل، وكان إحياء الكَثْلَكَة الذي عَقَبَ الإصلاحَ الدينيَّ في إيطاليا ضربةً مميتةً للحركة الإيطالية، ومع ذلك فإن هذه الحركة استمرت أكثرَ من نصف قرنٍ أيضًا، أي أن إيطاليا تحافظ، في سنة 1600، على شيءٍ من حياتِها في زمن لِيُونَ العاشر، الكثيرةِ الكمال والحرية والازدهار، ثم يَتَّسِع نِطَاقُ الفتور فيَبْلُغُ القلبَ، فصار الفَنُّ لا يُنْتِجُ غيرَ غُنَاجَاتِ برنين وسخافاتِ بُرُّوميني، وَغَدَا ذهنُ الإنسان لا يَنْفَع لغير

(1) مكري، تاريخ الإصلاح في إيطاليا (ترجمة إيطالية)، ص 85. (2) برتولمس، Jordano Bruno، جزء1، ص 373.

صُنْعِ قصائد ذاتِ أربعةَ عشرَ بيتًا وتَرْثراتٍ للأكاديميات، وكلٌّ يَنْعُسُ كما لو كان تحت سِحْر، وأضحت إيطاليا لا تبالي بغير الوقوف و«السلام عليك يا مريمُ»، وبغير المعابد والأخويَّات.

16 - عَدُّ الرشدية مرادفةً للزندقة: سِزلَبِينَ وكَرْدَان وفَانيني

لقد صُفَّ بين الرشديين أناسٌ غريبون كثيرًا عن بقية أُسْرَة المَشَّائين ببَادُو كسِزلْبين وكَرْدَان وفانيني وبِرِيغارْد، عن عدم مبالاةٍ بما لاسم ابن رشد من مَعْنًى مضاعَف.

وكان سِزلْبينُ من روح الابتكار بحيث لا يَمْتَزِج بمدرسةٍ تَقُوم على نَقْصِ الابتكار، أجَلْ، إنه يقترب بنِقَاطٍ في مذهبه من ابن رشد، بَيْدَ أنه لا يَتَصِّلُ بالرشدية البادُوية في شيءٍ روحًا ووضعًا، ويَجِدُ خصمُه نِقُولا تُورِل أن مذهبه أكثرُ من مذهب ابن رشدٍ استحالةً وإلحادًا، والواقعُ أن سِزلْبينَ سلفٌ حقيقيٌّ لسبينُوزا، وذلك أنه لا حياةَ غيرُ حياةِ الله أو النَّفْسِ العامة، فاللهُ ليس العلةَ الفاعلة، بل العلةُ المُرَكَّبةُ لجميع الأشياء، والعقلُ الإلهيُّ واحدٌ، ولكنَّ العقل البشريَّ يَكْثُر بعدد الأفراد، وذلك لأن العقل البشريَّ ليس في حال الفعل، بل في حال القوة[1]، وهكذا فإن سِزلْبينَ، مع محافظته على العقيدة التي هي أساسُ الرشدية، يَتَجَنَّبُ البلبلة التي أدتْ إليها في هذه المدرسة سلسلةٌ طويلة من الخطأ، والمُدْرَكُ متحدٌ، ولكنَّ الموضوعَ متعدد، ومن الجائز أن يقال إن المُدْرَك يتعدَّد بالشعور الفرديِّ وَفْقَ عدد الموضوعات.

ويجاوِزُ سِزلْبينُ أشدَّ أدوار القضاء التفتيشيِّ من غير أن يُزْعَج، حتى إنه كان طبيبًا للبابا وأستاذًا في جامعة روما، وقد رأَى إحراق جُرْدَان برُونُو في ميدان فلُور، وقد اتخذ من الحِيَل البارعة ما أفلت معه من الرَّقَابة، وقد قال: «أعْلَمُ جيدًا أن جميع هذه المذاهب مملوءةٌ بالأضاليل ضِدَّ الدين، وإني أَدْفع هذه الأضاليل، ولكن ليس من اختصاصي أن أُفَنِّدَها، فأَتْرُكُ هذا الأمر لعلماء اللاهوت الذين هم أبعدُ غَوْرًا مني»[2].

ولا يَخْلُو مذهبُ كَرْدَانَ من مشابهةٍ لمذهب سِزلْبين، وذلك أن جميع النفوس الخاصة محصورةٌ ضمن النَّفْس العامة دلالةً، وذلك كالدُّودة داخلَ النبات الذي تَغْتَذِي به، ويقول كَرْدان، في رسالة الاتصال التي هي من أول ما أَلَّف، بالفَرْضية الرشدية حَوْلَ وَحْدَة العقل قولًا

(1) راجع بروكر، جزء4، ص 221، وما بعدها، جزء6، ص 723، وما بعدها ربتر Gesch, der neuern Phil، قسم1، ص 653 وما بعدها.

(2) Fateor in rationibus deceptionem esse, non tamen in praesentia meum est haec aperire, sed iis qui altiorem theologiam profitentur بيل، مادة سزلبين، تعليق آ).

مطلقًا، ثم رَجَعَ في رسالة السَّلْوَة عن رأيه الأول واعترف بصراحةٍ أنه لا يُمْكِنُ أن يُوجَدَ عقلٌ وحيدٌ سواءٌ ألجميع ذوي الحياة أم لجميع الناس، ومما ذهب إليه في هذه الرسالة كوْنُ العقل شَخْصِيًّا لدينا كالإحساس، وكَوْنُ الأرواح منفصلًا بعضُها عن بعضٍ في هذه الدنيا كما ستكون في الحياة الآخرة، ثم إن كَرْدان جَدَّ في كتابٍ ثالثٍ عن خلود النفس أن يُوَفِّقَ بين هذين الرأيين المتباينين، وذلك أن العقل، وإن كان وحيدًا، يُمْكِن أن يُنْظَرَ إليه من وِجهتين، وذلك من حيث صلتُه بوجوده الخالد المطلق ومن حيث ظهوراتُه في الزمان، وذلك أنه وحيدٌ في مصدره متعدِّدٌ في ظهوراته[1]، وهذا حَلٌّ رائعٌ يجب أن يُرْجَعَ إليه لإيضاح أمرِ العقل دائمًا.

وعلى ما كان من هذا التحول في المذهب الذي يَعْتَرِفُ به كَرْدَانُ فقد عُدَّ رُشْدِيًّا من قِبَلَ خصمه الغليظ، جُول سِيزَاسكَا لِيجِه[2]، في أهاجِيِّه، ولا ينتسب كَرْدان، بطِرَاز تفلسفه ولا شكلِ مؤلَّفَاته، إلى أُسْرة أساتذة بادو مطلقًا، وإنما يَكُون بوضعه حِيَالَ علم اللاهوت، في الحقيقة، من أوضح ما يُدْعَى الرُّشدية على معنى آخر، وما كان من العبارة التي جاءت في كتاب الدقائق (1، 11) والتي جعل فيها النصارى واليهود والمسلمين والوثنيين يبرهنون ضِدَّ بعضهم بعضًا والتي خُتِمَتْ فجأةً ومن غير نتيجة بكلمة «إِذَنْ، تَرَك هذه الأمورَ لحَكَم النصر...» أوجب عَدَّه بين مؤلفي كتاب «الدجالين الثلاثة»، ويُبَاهِي أحدُ الشياطين المعتادين الذين يَظْهَرُون لأبيه بأنه رشديٌّ، «وهو يَعْتَرِف جهارًا بأنه رشديٌّ»[3]، ويَبْدُو هذا الرأي بالغَ الوقاحة ما دام ابنُ رشدٍ لم يؤمن بالشياطين[4].

ومن غير الصواب أيضًا أن يُعَدَّ كلُود بِيرِيغَارِدُ[5] من الرشديين، وقد بَرَّأه بِرُوكِرُ[6] من هذا العيب تمامًا، وعلى العكس يجب أن يُعَدَّ بِيرغَارْدُ من خصوم المَشَّائية على العموم والرشدية على الخصوص، فهو يقول بِصَبِّ الروح الفرديِّ حين الولادة، ومن ثَمَّ بتعدد الأرواح، ومع ذلك فإن مما يَسْهُل إدراكُه أن أدَّى مذهبُه الطبيعيُّ المُقَرَّرَ وإنكاراتُه الجريئة إلى منحه مكانًا بين الرشديين على أوسع ما تحتمله هذه الكلمات من مَعْنًى.

ولا مِرَاءَ في أن التَّعِسَ فانيني هو مثالُ الرشدية الأكثرُ ابتكارًا كما تُدْرَك، وهو يُؤَكِّدُ لنا أن

(1) انظر إلى مقالة مسيو فرانك عن كردان في معجم العلوم الفلسفية.

(2) Exotericarum exercitationum de subtil. adv, Cardanum liber XVe. Exerc CCCVII, Nos, 14 et 16

(3) De subtil. 1: 19، ص 682.

(4) دفاع عن العظماء، ص 232 (باريس 1669)، بيل، مادة ابن رشد، تعليق ف.

(5) ليبنتز، معارضة1، 2ص 73.

(6) تاريخ النقد الفلسفي، جزء4، ص 472، و 482 وما بعدها.

أستاذه هو الراهبُ جان بيكن المُلَقَّبُ بأمير الرشديين والذين كان يَحْمِلُ تلميذَه على القَسَمَ بابن رشد[1]، وهنا نَجِدُ فانيني في حالٍ من جُرْم الهَزْل المشهود، وذلك أن الرجل الذي يريد أن يتكلم عنه هو، لا رَيْبَ، جان بيكَنْتروب الذي مات سنة 1346، أي قبل أن يَولَد بـ240 سنة[2]! ومع ذلك فيَلُوح أن فانيني جَدَّ في مداعبة الجُمهور حَوْلَ أسماء أساتذته، وذلك بادعائه أنه تلميذٌ لبُنْبُونا بلا انقطاع مع أن بُنْبُونا مات سنة 1525 ووُلِدَ فانيني سنة 1585، حتى إن فانيني لم يُعْنَ كثيرًا بقراءة كتب أستاذه الإلهيِّ كما يَدْعَوه، وذلك لأن من المستبعد أن يُسْتَنْتَج منها كَوْنُ ابنِ رشد قد حَلَّ في جسم بُنْبُونا عن تَنَاسُخٍ ما وُجِدَ تفنيدٌ لابن رشد في كلِّ صفحةٍ منها، وكان فانيني لا يَنْظُر فيها عن كثبٍ، وكان هذا الصاحبُ لذهنٍ غريبٍ يَتَمَسَّكُ بكلِّ ما يُمْكِنُ أن يُساعد على حَذْلَقَاتِه، ومن ذلك قولُه في محاورته الثلاثين إنه بينما كان في أحد الأيام يَعِظُ حَوْل السؤال القائل: لِمَ خَلَقَ اللهُ الإنسان؟ حَلَّه بمرْقَاة ابن رشد المشهورة التي يجب أن يَكُون له بها تَدَرُّجٌ من أحقر جميع الموجودات إلى الموجود الأعلى الذي هو اللهُ أو المادةُ الأولى[3]، وأراد فانيني أن يُعَلِّمَ في جِنْوَة وَفْقَ هذه المبادئ، بَيْدَ أن كاتبَ سيرته قال: «لم يَقَعَ ابنُ رشدٍ موقعًا حسنًا هناك»، فاضْطُر إلى الانصراف[4]، وكان يقول إن المؤلفين المُفَضَّلين لديه هم أرسطو وابنُ رشد وكَرْدَان وبُنْبُونا[5]، وكان يسير على غِرار أستاذه المزعوم، جان بيكن، فلا يَضَعُ غيرَ كتب ابن رشد بين أيدي تلاميذه[6]، ومن الواضح أن ابن الرشد الذي هو موضوعُ الكلام هنا ليس الشارحَ الأكبر، بل المؤلفُ الخياليُّ الذي تُعْزَى إليه مؤلَّفات إلحاديةٌ سهلةُ المطالعة، ومع ذلك فإن فانيني كان يَعْرِف الشرحَ الأكبرَ، وهو يُفَنِّدُ بشدةٍ مصنوعةٍ نظرياتِ الرشديين حَوْلَ قِدَم العالم والعقول والعناية الإلهية وَوَحدة الأرواح[7]، بَيْدَ

---

(1) Ampit, Exercit, IV. P. 17, Duce Averroe, in cujus verba jurare Joannes Bacconius, Averroistarum princeps, neritissimus olim praeceptor, coegerat.

(2) وأغرب ما في الأمر هو أن الذين تكلموا عن فانيني وقعوا جميعهم، تقريبًا، في هذا الخطأ التاريخي العظيم، ويرى مسيو كوزان (مقتطفات من الفلسفة الديكارتية، ص 20)، أن فانيني يريد أن يقول إنه أكثر من دراسة مؤلفات بيكن في شبابه، بيد أن هذا النوع من الأكاذيب كثير لدى فانيني، ومن الخطأ أن يعد من التفاصيل المكتوبة بخط اليد جميع ما يقول عن نفسه سواء أفي محاوراته أم في مدرجه، فمن حيل ذلك الزمن أن يذكر الإنسان أمورًا حدثت له حتى يلقى بهجة على كتابه، وهذا ما صنعه كردان وكليوس كلكانيني، ومونتين نفسه.

(3) Materia prima, secundum averroistas, sola potentia, actus purus solus deus محاولة 30.

(4) حياة لوسيليو فانيني وآراؤه، لدافيد دوراند (روتردام، 1717)، ص 47.

(5) المصدر نفسه، ص 18.

(6) Quum a me primis philosophiae sacris initiaretur, nullius juravit in verba magistri, sed Averrois libros a me oblatos avide excepit, et in eis perlegendis abeo profecit ut balbutien tium scholasticorum ineptias confutare sit aggressus المدرج، ص 350.

(7) راجع المدرج، تمرين1، 4، 33، 35، 36، 37، 41، راجع كوزان، مقتطفات من الفلسفة الديكارتية، ص 37، روسلو، مؤلفات فانيني الفلسفية، سيرة موجزة، ص 6.

أنه لا يَنْبَغِي أن يُنْظَرَ بعين الجِدِّ إلى فانيني في مذاهبه، فالرأيُ الذي يُفَنِّدُ هو الرأيُ الذي يُرِيدُ تلقينَه دائمًا تقريبًا، ومهما يَشْعُرْ به الإنسانُ، مُكْرَهًا، من مَيْلٍ إلى صاحب هذه النفس المَرِنَة، ولاسيما نحو الرسومِ الفلسفيةِ اللاذعة التي سَمَّاها «المحاورات»، فإنه لا يُمْكِنُ أن يُنْكَر أن القريحة والكياسة والخَباثة والفِراسة تُخْفِي وراءها أكثرَ ما يَكُون من ارتيابٍ مناف للأدب ودهريةٍ بالغة السفاهة، ويَبْدُو الإلحادُ الرشديُّ في القرنِ السادسَ عشرَ قاتمًا مستخفًا مُدَاهنًا بلا كرامة، بدلًا من الصراحة الفرنسية المَرِحة اللطيفة في القرنِ الثامنَ عشرَ، وذلك أنه كان يُوضَعُ من الكتب للدفاع عن العقائد ما يُرَاد الحَمْلَةُ عليه بالحقيقة، وأنه كان يُعْرَضَ من الاعتراضات ما هو قويٌّ جِدًّا مع نَعْتٍ واضعيها بالخبثاء السخفاء ومع الرَّدِّ عليها بأجوبةٍ مثيرة للسخرية أو مع إظهار تَعَذُّر الرَّدِّ عليها بالعقل، وأيُّ سبيلٍ كان ديوانُ التفتيش يَجِدُ حِيَالَ رجلٍ يدافع عن مَجْمَع تارَنْت الدينيِّ ويستحقُّ رِضَا السُّرْبُون ويُعَنْونِ كتبَه بمُدَرَّج العناية الإلهية الأزلية والإلهية الساحرة والنصرانية الطبيعية والتنجيم الكاثوليكيّ والردِّ على قدماء الفلاسفة وعلى الدهريين والأبيقوريين والمَشَّائين والرِّواقيين، إلخ، ويَخْتِمُ أكثرَ رسائله المشهورة زندقةً بالكلمة: «أُخْضَعُ في الباقي لحُكْم الكنيسة الرومانية المقدسة؟».

ومن المحتمل أيضًا كَوْنُ القرنِ السادسَ عشرَ كالقرنِ الثالثَ عشرَ في تجسيمه خُبْث الرشديين قَصْدًا، وأنه كان يَتَلَهَّى في تَكْوِيمه على أشكالٍ من الإلحاد جميعَ الأفكار السيئة التي كانت تَسِيرُ في الهواء والتي كان على كلِّ واحدٍ أن يعترف بأنه مُذنبٌ من أجلها، ويُذْعَرُ روحُ المؤمن في أول مرةٍ تَرْتَقِي إليه الفكرةُ الإلحادية على هذا الوجه، فيريد أن يُلْقِيَ على الآخرين نَزَغَاتِه الخاصةَ، وكان الدجَّالون الثلاثةُ يَعُودون لإرعاب الشعور، قال مُونْوَا: «أتاح الجِنَاسُ المُسْتَقْبَحُ الذي أُغْوِيَ به الناسُ من قِبَلَ ثلاثةٍ ماكرين، والذي ما فَتِئَ الملحدون يُكَرِّرونه، لبعضهم فرصةَ القول بأن هذا ينطوي على تمرين الإنسان لذهنه، وأن هذا يَكُون موضوعًا جميلًا لكِتَاب[1]»، ثم إن جميع الفِرَقَ من كاثوليك وبرُوتستان وغيرِهم حَمَلُوا عليه مِثْلَ إهانة، ويَحْمِلُ بُودَانُ أتباعَ مختلف الأديان على إقامتهم الدليلَ ضِدَّ بعضهم بعضًا فلا يُفَضِّلُ أحدَها على غيرها، حتى إن الخبثاء كانوا يعتقدون ملاحظتَهم أنه استُظْهِرَ على النصارى

(1) Menagiana جزء4، ص 283 وما بعدها، وما اتفق لهذا الكتاب من شغل الأذهان دائمًا أغرى بكتابته بعد الأوان وجذب إليه الكتبيين، والواقع أنه يوجد في القرن الثامن عشر بعض المؤلفات الهزيلة تحت هذا العنوان، ومن بينها مؤلف وضع له تاريخ 1598 السابق، ومن بينها مؤلف آخر مزج باسم سبينوزا، راجع برونه، Man du libr، جزء4، ص 512، و 520 (طبعة رابعة) وخطاب لِيبنتز إلى كورتول، 21 يناير 1716 (معارضة، 5، 336) وشتيمة فولتير الرائعة (رسالة 111، طبعة بوشو)، راجع مجلة تراجم الأحوال لميلر وأوبنا، 1842، ص 749 وما بعدها.

في كتابه دائمًا تقريبًا، وأن الأجوبة لم تَكُنْ قويةً كالاعتراضات قَطُّ[1]، وكان بُوسْتِل يَزْعُم أن الدين الكامل يُرَكَّب من النصرانية واليهودية والإسلام على نِسَبٍ متساوية، وأما فانِيني، «هذا الخبيثُ السافلُ، هذا الغَثُّ، هذا المَسْعُورُ، هذا الممسوس الرذيل الذي لم يَظْهَرْ مِثْلُه سوءًا (غاراس)»، فقد أعاد طبع هذا الكتابِ الكريه على ما رُوِي[2]، وتَلُوح الكلمةُ التي عزاها إليه شهود العِيَان وهو سائرٌ إلى الأعدام، والقائلةُ إنه يموت مِثْلَ فيلسوف[3]، تذكارًا لابن رشد، وهي «لتَمُتْ نَفْسِي موتة الفلاسفة».

17 - ابن رشد خارج إيطاليا. أحكام مختلفة

إذا نُظِر إلى الرشدية الأصلية، أي دراسة الشرح الأكبر، وُجِدَ، على العموم، أنها انتشرت قليلًا خارجَ إيطاليا، ويَرَى بَتْرِزِّي أن وصفَ مدارسِ فرنسا وإسبانيا الفارقَ يقوم على إيضاح مَتْنِ أرسطو فيهما بلا شروح[4]، ووُجِدَ من الإيطاليين الرُّحَّل، كفَرَنْسوَا فِيمِيرْكَاتِي مثلًا[5]، من أَتَوْهما وحدَهم ببعض الضوضاء من ناحية الجبال هذه، وشَهِدَ جان بُرُيْرَانَ شَنْبِيه (في سنة 1537) بما نال هؤلاء الأساتذةُ الغرباءُ مع كتابهم الجديد من اعتبار عابر[6]، ولم يتألَّقْ نجمُ ابن رشدٍ في فرنسا مع ذلك، ولا يُوجَدُ في نُسَخ مكتباتنا أثرٌ دالٌّ على مطالعتها، فأطرافُها سليمة، ورأيتُ في كلِّ مرةٍ أن الأوراق التي تَفَلَّتَتْ من شَفْرة المجلِّد غيرُ مقصوصة، ومع ذلك فإن لِيُونَ تَعْرِض أثرًا من الرشدية[7]، وذلك أنها قامت بعِدَّة طَبَعَاتٍ لكتب ابن رشد الطبية والفلسفية، وقد جاء في الإذن الصادر عن الملك الشديد النصرانية هنري الثاني: «تشتمل هذه الكتب والرسائل على زِينَةٍ من الجمال وعلى حُجَجٍ عجيبة في الفلسفة جيدةٍ نافعة في أمور مملكتنا العامة، مفيدةٍ في تثقيف من يَرَوْنها ويطالعونها»، ولم يُلْتَفَتْ إلى هذه النصيحة الملكية كثيرًا، وخَرَجَ ابنُ رشد من المدارس الفرنسية نهائيًّا[8]، ومما يجب اعتقاده أن كِكِرْمان كان يُظْهِرُ رغبةً شخصية

---

(1) Colloquium heptaplomeres de abditis rerum subtilium arcanis وقد نشره مسيو كهراور، برلين 1841.

(2) قال روسه في تاريخ مأساته: «لقد حمل على إحياء الكتاب الخبيث الكريه الذي عنوانه «الدجالون الثلاثة» والذي يطبع على مرأى من النصارى وفضحًا لهم»، وياللخسارة في عدم ذكر المكان والزمان!

(3) كوزان، الكتاب المذكور سابقًا، ص 89 وما بعدها. (4) النقاش المشائي، 1: 12، ص 106.

(5) قدم كوئنبروا فيمركاتي مثل رشدي، (1، 2، كتاب النفس، فصل 1، مسألة 7، مادة 1).

(6) Postquam ex Italia terra in Gallias nostras philosophi quidam convolaruni, magna cum laude pariter et frequenti auditorio commentaria Averrhoi in Aristotelis volumin interpretatnes.

* Praef, in Averrois Collect, med، ص 81 (طبعة 1553).

(7) أجد أنه طبع بليون في أربعة مجلدات سنة 1582، رسالة isidori isolani in Averroistas, de oeternitate mundi.

(8) وإليك كيف يعبر نيوفيل ربنو عن نفسه وهو يتكلم عن جهود ريمون لول لتفنيد ابن رشد: =

تمامًا عندما طَلَبَ، مع الإصرار، أن تقوم المطبعة المديسيَّة، التي نشرت متنَ ابنِ سينا العربيَّ، بطبع متن ابن رشد أيضًا[1]. وكذلك شاهدت إسبانيا والبرتغال، اللتان استمرت السَّكُلَاسيةُ فيهما حتى أيامنا تقريبًا، دوامَ نفوذ ابن رشد مدةً أطول من تلك، وقد جَمَع أنطونيو ما وُجِّهَ إليه من مدائحَ صَدَرَت عن عددٍ كبيرٍ من أطباء الإسبان والبرتغاليين[2]، ومع ذلك فقد حُكِمَ عليه بشدة من قبل يسوعي قُلُمْرِيَة[3].

وقد أُقْصِيَ ابن رشد في موضعٍ آخرَ بين «كتب السَّكُلاسيين التي لا تَصْلُح لِلَفٍّ ولاتخاذها كَرْتَونًا[4]» فَشُوِّه لدى الرأي العامِّ تشويهًا غريبًا، وذلك أن تلك الشروح الرصينة التي كان يُمْكِنُ الرجوع إليها بسهولة عُرِضَتْ مِثْلَ أهاجِيَّ مملوءةٍ تجديفًا، ويالله العجب! تَرَى بِيلَ وبرُوكِرَ[5]، اللذين خَصَّا ابنَ رشدٍ بمقالاتٍ طويلة جَمَعا فيها أكثرَ الأنباء عنه بُعْدًا من الصواب، لم يُفكِّرَا في فَتْحِ كتبه، ويُخَيَّلُ إلى الإنسان أن الأمر يَدُورُ حَوْلَ كتبٍ غيرِ مطبوعةٍ أو نادرة فيُضْطَرُّ إلى الكلام عن اعتمادٍ، ويُقَدِّمه نُودِه، الذي كان عليه أن يَعْرِفه جيدًا في أثناء إقامته ببادُو، مِثْلَ ملحدٍ صِرْفٍ ويُطَبِّقُ عليه كلمة تِرْتُلْيَان[6]: «تحت لباس الفلاسفة الملحدين»[7]، وفي حُكْمِ لِدُبْلِسِّيس مُورْنه أن أرسطو على شيء من التدين، وأما شارحُه ابنُ رشد فزنديقٌ مَحْضٌ[8]، ودُبْلِسِّيسُ هذا تكَلَّفَ أمرَ تفنيد نظرية العقل العامِّ شكلًا[9]، ويَعُدُّ كَنْبَنِلَّا، وبرِيغَارْدُ من

---

congruentior et exauditu facilior fuisset petitio, pro qua nunc quae Dei benignitas est I non est satagendum: = nimirum ne Averroes oraculi loco esset in secholis: quod quum superiori seculo et paucis anterioribus invaluisset, praesertim in Italia, occasio fuit magnorum in oris illis errorum et inutillis diligentiae... quod in dignissimum fuisse nemo non videt. Nunc Averrois tn scholis depontanus evasit. Erotemata de malis ac bonis libris. رقم 340، ص 200 لوغد ونوم 1653، ولا يدهش قليلًا من ذكر ابن رشد مثل حجة في أمر الأسلوب (!) من قبل فرنسوا بيدو في دفاعه الجرماني بسبب حيازة راهبات لودون بواتية 1636.

(1) انظر إلى بيل، مادة ابن رشد، تعليق 1.

(2) Bibl, hisp, vet Averroes plus quam commentator, seu malleus medicorum verius appellandus.. vir acutissimus subtilissimus, Philosophus post Aristotelem admirandus, post Galenum medicus summus. (طبعة باير)، جزء2، ص 395

(3) Haec commentatoris seu sommentitoris potius de unitate intellectus sententia adeo stulta est, ut merito Scouts in IV Sent, d 43, q2 dixerit dignum esse Averroem qui ob has ineptias ex hominum communione averrunctur, alii vero hoc ejus figmentum monstrum vocarint quo nullum majus Arabum sylvae genuerint. Certe hoc unum sat esse debuisset ad eos coarguendos qui filium Rois tanti faciunt, ut ejus animam Aristotelis mimam esse dicant 1: 2، كتاب النفس، فصل1، مسألة7، مادة2.

(4) بونيفارد، Advis et devis des lengues (مكتبة مدرسة المراسيم، السلسلة الثانية، جزء5، ص 356.

(5) Illi definient quibus plus est temporis, otii atque patientiae ad evolvenda scripta nostro tempore plane inutilia. بروكر، جزء 3، ص 108.

(6) Adv, Hermog, C. VIII

(7) Naudoeana، ص 21 (طبعة 1701)، Aplogie، ص 232، طبعة 1669.

(8) حقيقة الدين النصراني، فصل 20، ص 258، 259.

(9) المصدر نفسه، فصل 15.

بعده، ابنَ رشدٍ أولَ واضعٍ لتجديف الدجالين الثلاثة[1]، ولا أدري من هو العالم اللاهوتيُّ الإنجليزيُّ الصالح الذي دعاه بالغول وكاتبِ الجحيم[2]، وكانت كلمة «لتَمُتْ نفسي مَوْتَةَ الفلاسفة» المشهورةُ كافيةً لأن يَجْعَلَهُ فُسْيُوسُ بهذا ملحدًا خالصًا[3]، ولأن يُظْهِرَهُ مُونوا مزدريًا مُغاليًا لجميع الأديان[4]، ويبْدُو غِي باتَن أقلَّ غيظًا فيَصُفُّه بين القائلين بوجود الإله مع إنكار الوحي[5]، ويَسْمَحْ آخرُ لنفسه أن يستند إلى عبارةٍ من غارَاسَّ فيَعْزُوَ إلى ابن رشد سياسةً غريبةً كهذه: «يَجِبُ أن يُصْنَع للناس (وهذا هو رأي فانِيني الذي يُعْرَض) كما يَصْنَع الحَطَّابُون كلَّ سنةٍ في الغابات الكبيرة، أي أنهم يَدْخلونها لتفتيشها ولَيعْرِفوا أيُّ الأشجار مَيِّتٌ وأيُّها أخضرُ فيَقْطَعُوا منها ما هو زائدٌ غيرُ نافعٍ أو ضارٌّ، مُبْقِين جَيِّدَها أو ما يُرْجَى تَحَسُّنُه منها فقط، فعلى هذا النحو يقول هذا الملحد الخبيث بوجوب تفتيش جميع سكان المدن الكبيرة المأهولة وقَتْلِ كلِّ من لا خَيْرَ فيه ويَحُول دُونَ عَيْشِ البقية، أي قتلِ كلِّ من ليس لديه حِرْفَةٌ نافعةٌ للجُمهور وقتلِ كلِّ هَرِمٍ ومتشرِّدٍ ومِكْسَال، وبوجوب بَتْرِ الطبيعة وتطهيرِ المدن وإبادةِ مليونِ إنسانٍ في كلِّ عام، كالَّذين يَكُونون كالعَوْسَج الذي يَعُوق الشجر من النمو»[6]، فهذه، هذه ثَمَرَاتُ مدرسةِ ابن رشد! هذا ما صَرَخَ به أحدُ كاتبي سيرة فانِيني بعد أن أورد هذه العبارة[7].

وأخيرًا رأى بعضُ اليسوعيين، في القرنِ السابعَ عشرَ، أن يُفَنِّدُوا ابنَ رشد، ومن ذلك أن أنطوان سِيرْمُون بَذَل جهدًا عظيمًا ضِدَّ العقل الوحيد[8]، وذلك في رَدِّه على بُنْبُونا (باريس، 1625، أي بعد موت بُنْبُونا بمائة سنة تمامًا)، وذلك أن هذه الفَرْضِيَة تَجْعَلُ الله مسؤولًا عن ضلال الناس، وأنها تفترض، فضلًا عن ذلك، كَوْنَ الإنسان نفسِه قابلًا لتقلبات متعارضة، وإذا كان ابن رشد قد أراد الكلام عن فعل الله في العقل كأول عِلَّةٍ فإنه ليس لسِيرْمُون ما يقول في ذلك،

---

(1) Propterea exiit liber de Tribus Impostoribus in Germania juxta Averrois et Aristotelis dogmata, volentium legislatores esse impostores, et praecipue, ut dicit Averroes, Christum, Moysen et Mahumetem, (De gentil, non retinendo, p. 21)< Averroes scripsit contra tres legislatores, Christum, Mosem et Mahumetum, deditque materiam scriptori impio de Tribus impostoribus (Atheismus triumphlatus, seu reductio ad religionem, cap II, n19) Cf Berigardum, in Praef Circul. Pisan. P5.

(2) Menagiana، جزء4، ص 299.

(3) Quam parum viderit tantus philosophus in vera et unica salutis via arguit illud quod diceret, malle se animam suam esse cum philosophis quarr cum christianis, De philos, sectis، فصل 17، ص 91.

(4) Menagiana، ص 286 (طبعة 1715).

(5) Patiniana، ص 96، 97، طبعة 1701.

(6) غاراس، المذهب الظريف، ص 815.

(7) دافيد دوران، حياة لوسيلو فانيني وآراؤه، ص 52 - 54.

(8) De immortalitate animoe demonstratio physica et aristotelica adversus Pomponatium et asseclas، ص 368 وما بعدها.

وإنما وَجَّه بعضَ هَمِّه ليَعْرِف هل هذا رأيُه حقًّا[1]، وأشدُّ منهُ زميلُه بُوسِّفَن، فهو يَعُدُّ ابنَ رشدٍ رأسَ الزندقة، ويَعُدُّ طبعةَ الجُونْت وباغُولِيني من عَمَلَ الشيطان[2]، وهو يقتبس شتائمَ فِيفِسَ على أوسع نطاق، ولا يستطيع أن يَتَصَوَّرَ وجودَ نصرانيّ يَطْلُب دروسًا من زنديق ظَهَرَ بعد يسوع المسيح بأحد عشر قرنًا فساق القسوة الاختيارية بين بُحُورٍ من نُور النصرانية حتى البقاء ضِمْنَ مكره[3].

ولم يَصْنَعَ مُورِيري ودِرْبِلو وبِيلُ ورابان[4] غيرَ قبولهم ما هو دارجٌ من عنعناتٍ حَوْلَ إلحاد ابن رشد، وكَرَّرَ القرنُ السابعَ عشرَ والقرنُ الثامنَ عشرَ عَيْنَ الأقاصيص بلا حذرَ، وَيَعُدُّه لِبْنِتْز مؤلِّفًا ضارًّا أصابَ العالَم النصرانيَّ بأعظمِ ضرر[5] كما يَعُدُّ فِيكُو ممثلًا أساسيًّا للزندقة الملازمة للمَشَّائية[6]، ومن الاتفاق الغريب أن صارت الكلمة التي عُزِيت إليه عن سِرِّ القربان المقدس سلاحًا في الجَدَلَ البروتستانيِّ، وقد أباح دُبلِسيس مُورْنِه[7] ودِلِّه[8] ودِرِلِنْكُور[9] لأنفسهم إثبات الضرر الذي كانت العقيدةُ الكاثوليكيةُ تُصيبُ النصرانيةَ به في رأي الوثنيين، فكان من نصيب ابن رشد أن يُتَّخَذَ ذَرِيعةً لأشدِّ الأحقاد اختلافًا في منازعات العقل البشريِّ وأن تُسْتَتَرَ باسمه مذاهبُ يَظْهَرُ أنه أقلُّ من يُفَكِّرُ فيها لا رَيْبَ.

إذا ما نُظِرَ إلى تاريخ الرشدية ضَبْطًا وُجِدَ أنها ليست سوى تاريخٍ لمَعْنًى مناقضٍ للمعنى

---

(1) Restat ergo ut suum istud somnium intergrum Averroes somnii loco et mendacii haberi sinat, aut certe interpretetur ipse de actione intellectus divini.. An ita possit accipi non disputo, illud contentus ostendisse quod nisi quid simile sonet ejus doctrina, inanis ac stulta sit, si quid autem simile, ne pilum quidem nobis adversantem habeat. المصدر نفسه.

(2) Cernunt qui non sunt omnino caeci hace a satana paulatim obtrusa piis mentibus et abeo privilegiis subdole obtentis confirmata, fructus illos peperisse acerbissimos, unde magna Europae pars per haereses et atheismum, isto hominum gener tanquam chorago praeeunte, prorsus ad vertatem, quae altrix est pietais obstupuit, Bibl, sel جزء2، 1: 12، فصل 18.

(3) Quum tot potuisset divinae sapientiae oracula miraculaque vidisse, ac tamen perstitisset in perfidia sua impius, acquid tatntum christianae mentes ex trubido impietatis coeno piscari sese posse existimarunt, Bibl, sel، جزء2، 1، 2، فصل 16.

(4) تأملات في البلاغة والشعر والتاريخ والفلسفة: 15.

(5) معارضة، جزء1 ص69 وما بعدها (طبعة دوتنس)، راجع تفنيد سبينوزا أيضًا، وقد نشر من قبل فوشه الكاربي، ص 75.

(6) المذكرات، وقد استشهد بها في مقدمة مدام بلجيوجوزو على العلم الحديث لفيكو، ص 18.

(7) رسالة السين، ص 1106.

(8) لم يغفر لك عقلاء العالم هذا الاعتماد الغريب، ودليل ذلك قول الفيلسوف ابن رشد الذي لم يجد ملة أسوأ، ولا أفكه، من ملة النصارى الذين يأكلون الإله الذي يعبدون ويمزقونه»، (جواب إلى بـ آدم، ص 116).

(9) لا نستطيع أن ننسى المثال المحزن لهذا الفيلسوف الوثني الشقي الذي رأى أكل القربان المقدس الذي يعبد فلم يبصر ملة أسخف، ولا أدعى إلى السخرية، من ملة النصارى الذين يعبدون ما يأكلون، والذي صرخ لهذا السبب قائلًا: «لتكن روحي مع روح الفلاسفة نظرًا إلى أن النصارى يعبدون ما يأكلون (المحاورة التاسعة ضد المبشرين، ص 305، 306).

الحقيقيّ، فيُرَى ابنُ رشد البالغُ الاستقلال في شرح المذهب المَشَّائيِّ قد شُرِح بدَوْرِه بحرية أكثرَ من ذلك، فمن تحريفٍ إلى تحريفٍ انتهت فلسفةُ اللّيسه إلى إنكارِ ما فوق الطبيعية وإنكار الخوارق للعادة وإنكارِ الملائكة والجنِّ والتدخلِ الإلهيّ، وإيضاح الأديان والمعتقدات الأدبية بأنها نتيجةُ خِدَاع، والحقُّ أن أرسطو وابن رشد لم يَدُرْ في خَلَدِهما أن مذهبَهما سينتهي إلى هذا ذاتَ يوم، ومما يَجِبُ في أمر الرجال الذين يَرْتَقُون إلى مرتبة الرَّمْزِ أن يُمَازَ دائمًا بين حياتهم الشخصية وحياتهم بعد الموت، أي بين ما فعلوه بالحقيقة وما فَعَلَ الرأيُ العامُّ منه، أَجَلْ، إنه لا يوجد سوى معنًى واحدٍ للمَتْن في نظر العالِم باللغات، غير أن الذهنَ البشريَّ الذي وَضَعَ في هذا المَتْن حياتَه وجميعَ عواطفه، والذي يَشْعُر في كلِّ ساعة باحتياجات جديدة، لا يكتفي بترَجمة العالِم اللغويِّ الدقيقة، وهو يَرَى وجوبَ حَلِّ المَتْنِ الذي انتحله لجميع شكوكه، ومن هنا أَتَى ضربٌ من الضرورة إلى معنًى مناقض للمعنى الحقيقيّ في نشوء البشرية الفلسفيِّ والدينيّ، وما يَكُون من معنًى مناقضٍ للمعنى الحقيقيِّ في أدوار النفوذ يُعَدُّ انتقامًا من الذهن البشريِّ ضِدَّ عصمة المَتْنِ الرسميّ، ولا يَتَخَلَّى الإنسان عن حريته في نقطةٍ إلا ليستردَّها في نقطةٍ أخرى، ويَعْرِف الإنسانُ أن يَجِدَ ألفَ مَفَرٍّ وألفَ حيلةٍ ليُفْلِت من القيد الذي فَرَضه على نفسه، ويُفَرَّقَ ويُشْرَحَ ويُضَاف ويُوضَحُ، وهكذا لا يزال الذهنَ يَجِدُ نفسه طليقًا تحت ثِقَلَ أعظم سلطانين سيطرا على الفكر، وهما الكتابُ المقدس وأرسطو، وهكذا لا تُوجَدُ قضيةٌ جريئة لم يؤيدها بعض علماء اللاهوت مع زعمهم أنهم لا يخرجون عن نطاق الأُرْثُدُكْسِيَّة، وهكذا لا يوجد مذهبٌ تصوفيٌّ لم ينشأ تحت ستارٍ من تفسير أرسطو، وما تَكُون البشريةُ لو فَهِمَت الكتابَ المقدسَ منذ ثمانيةَ عشرَ قرنًا وَفْقَ مَعَاجم جِزِنْيُوس أو برتْشنَايْدِر؟ لا يُبْتَدَع شيءٌ بمَتْنٍ يُدْرَكُ بضبطٍ بالغ، ويُعَدُّ التفسيرُ الخصيبُ، الذي يَعْرِف أن يَجِدَ، ضِمْنَ المَرْجِعِ الذي يُسَلِّمُ به لمرةٍ واحدة عن جميع المرات، جوابًا عن مقتضيات الطبيعة البشرية الناشئة بلا انقطاع، عَمَلَ الشعورِ أكثرَ من أن يُعَدَّ عملَ علم اللغات.